

كتاب المصلا

مجموع

الضاحك المضحك

بقلم

عباس محمود العقاد

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن دار « الهلال »
شركة مساهمة مصرية

رئيس التحرير : طاهر الطناحي

العدد ٦٥ - ذو الحجة ١٣٧٥ - أغسطس ١٩٥٦

No. 65 — August 1956

مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب

(المبتديان سابقا) القاهرة

المكاتب

كتاب الهلال - بوسنة مصر العمومية - مصر

الليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عدداً) - مصر والسودان
٨٥ قرشاً صاغاً - سوريا ولبنان ١٠٧٥ قرشاً سورياً أو
لبنانياً - الحجاز والعراق والأردن وليبيا ١١٠ قروش
صاغاً - في الأمريكتين ٥ دولارين - في سائر
الجزر العالم ٤٥٠ قرشاً صاغاً أو ٢٠/٦٠ قرشاً

كتاب المصداق



مجلسة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

ج الضاحك المضحك



بقلم
عباس محمود العقاد



دارالكتاب



جـا

تمهيد

الكلمة والضحكة

الكلمة اكبر الفتوح الانسانية في عالم الكشف والاختراع ،
لو لم ي اخترعها الانسان لوجب أن ي اخترع ما يساويها وينوب
عنها ، لانه لا حياة له بغير التفاهم بينه وبين أبناء نوعه ،
ولا تفاهم على شيء من الاشياء بغير الكلمة او ما يدل
دالاتها

انقول على شيء من الاشياء وكفى ؟

كلا . بل نعمم القول على الاشياء وما ليس بشيء من
الاشياء ، ونضرب بالمثل بيوم الاربعاء أو يوم الخميس أو يوم
من الايام في الشهر الاول من السنة الحاضرة
ما هو ذلك اليوم ؟ وما هو ذلك الشهر ؟ وما هي تلك
السنة ؟

يصعب علينا أن نسميها شيئا من الاشياء يتأتى لنا أن
نشير اليه كما نشير الى كل شيء نراه أو نحصره :

مسافة من الفلك تدور فيها الارض حول نفسها ، وليست
هى بالمسافة الثابتة التى تعود الى مكانها فى مجرى المنظومة
الشمسية من أجواز الفضاء !

شئ أو لا شئ . .

ولكنه على ذلك اسم لا بد منه لمن يذكر التاريخ ، ولمن
يعمل فى ساعته الحاضرة ، ولمن ينظر الى المستقبل ويقرر
له المواعيد والمواقيت

والاسم فى اللغة هو الذى استطاع ان يصطاد للعقل
هذه المسافة المجهولة من الفضاء الابدى ويعطيها الدلالة
التى لا غنى عنها

ولكنها ليست بالدلالة الوحيدة التى لا غنى عنها
كل ما تدل عليه اللغة لا غنى عنه للانسان ، ومنه هذه
المحسوسات التى نلمسها ونراها بالعين ، كالطريق والمركبة
والكرسى والانىاء . فاننا نجرب الاستغناء عن اللغة يوما
ونحاول ان نتفاهم عليها وهى غائبة عنها لا نستطيع ان
نشير اليها
لاسبيل !

وصدق القرآن الكريم : كل علم هو علم الاسماء ،
والله علم آدم الاسماء كلها ، لانها هى العلم الانسانى من
مبدئه الى منتهاه
الا انه علم الانسان

وكل علم للانسان يعرض له النقص من بعض نواحيه ،
فاذا قال لنفسه : لا بد لى من اللغة ! فلا ينس أن يقول
لنفسه : نعم . وحذار من هذه اللغة ، فان النفع منها للعقل
عظيم جد عظيم ، ولكن الضرر منها غير قليل وغير مأمون

من منافعتها انها تحصر المارد المنطلق فتحبسه في القمقم
المرصود مطيعا حيث يراد

ومن اضرارها انها تحبس المردة الكثيرة في قمقم واحد ،
فتنطلق مرة واحدة حيث يراد واحد منها ، وتنحبس مرة
واحدة حيث نريد أن نطلق منها هذا وندع منها ذاك

عودتنا اللغة أن نحسب كل اسم علما على شيء واحد،
وكثيرا ما يكون هذا الاسم كالقمقم الذي يحتوى فيه عشرات
المردة بعلامة واحدة ، وما من شبه بينها غير تلك العلامة
لضرورة التمييز والتقسيم

تعودنا أن نسأل : ما العلم ؟ ما الفهم ؟ ما الحس ؟ ما
الضمير ؟

وتعودنا أن نسأل : كيف نعلم ؟ وما وسيلة الفهم ؟ ولماذا
نحس ؟ وما بالنا نصفى للضمير ؟

تعودنا ذلك ، وتعودنا أن نجيب بجواب واحد ، كأننا
نسأل في جميع هذه الاحوال عن شيء واحد

وما نسأل في الحقيقة الا عن أشياء كثيرة تنبىء عنها
كلمة واحدة

ما نسأل في الحقيقة الا عن عشرين ماردا أو أكثر من
عشرين ، يجمعهم القمقم الواحد الذي نشير اليه

وفي سياق هذه الرسالة - رسالتنا عن حكمة جحا أمير
المضحكين - نسأل كما تعودنا من كل كلمة : ما الضحك ؟
ولماذا نضحك ؟

وما الضحك بشيء واحد ..

وما نضحك لسبب واحد ..

وما نفكر في الضحك على نحو واحد ..

ولكنها الكلمة التى لا غنى عنها ، ولا أمان منها كذلك مالم نعرف سر الرصد المسحور ؛

وهانحن أولاء فى هذه الرسالة نعرف سر هذا الرصد فى كلمة واحدة - كلمة الضحك - لنعرف منها أمير المضحكين بين المضحكين ، ونعرف منها أضحيكه بين أشبهات المضحكات

الضحك ضحكوك عدة اذا صح هذا التعبير ، وليس بضحك واحد

ونحن نضحك لاسباب كثيرة ، ولسنا نضحك لسبب فرد لا يتعدد ، ويوشك أن يكون لكل حالة من حالات ضحكاتها التى تصدر عنها ولا تطدر عن حالة غيرها ، كأنما هى لغة كاملة على أسلوبها فى التعبير

هناك ضحك السرور والرضى ، وهناك ضحك السخرية والازدراء ، وهناك ضحك المزاح والطرب ، وهناك ضحك العجب والاعجاب ، وهناك ضحك العطف والمودة ، وهناك ضحك الشماتة والعداوة ، وهناك ضحك المفاجأة والدهشة ، وهناك ضحك المقرور وضحك المشنوج وضحك السذاجة وضحك البلاهة ، وما يختاره الضاحك وما ينبعث منه على غير اضطرار

بل ربما كان لكل مضحكة من هذه المضحكات ألوان لا تتشابه فى جميع الأحوال

فالضاحك السرور قد يكون سروره زهوا بنفسه واحتقارا لغيره ، وقد يكون سروره فرحا بغيره ، لازهو فيه بالنفس ولا احتقار للآخرين

والضاحك الساخر قد يضحك من عيوب الناس لانه

يبحث عن تلك العيوب ويستريح اليها ولا يتمنى خلاص
أحد منها ، وقد يضحك من تلك العيوب لانه ينفس عن عاطفة
لايستريح اليها عامة بين اخوانه الأدميين ، ولا خاصة في
أحد يعنيه من أولئك الاخوان

والضاحك من عيوب السخف والحماسة قد يضحك من
السخيف الاحمق أو يضحك من الذي يحكيه في سخافته
وحمقه فيعرف كيف يحكيه ، وكلاهما باعث من بواعث
الضحك مخالف لغيره في أثره وداعيه ومعناه



هذه المسألة وضعت موضع التجربة العلمية بعد انتشار
الصحافة ، وتنوع موضوعاتها ، واختصاص طائفة منها
بموضوع الفكاهيات والمضحكات ، وتنافس الكتاب في ابتداع
فن جديد من أساليب الفكاهة والضحك ، كلما ألف القراء
أسلوبا منها وسئموه أو اشتاقوا الى غيره . فظهرت الفوارق
بين النكات التي تدعو الى الضحك ، وتمايزت بأسمائها وعلاماتها ،
وأوشك الكتاب الفكاهيون أن يتمايزوا بالتفوق في كل باب
من هذه الابواب ، واستطاعوا أن يفرقوا بينها بالتعريفات
أو بالحدود المفهومة

ولعلنا نطالب هؤلاء الكتاب بما ليس عندهم اذا سألناهم
أن يرجعوا بهذه الفكاهات المختلفة الى مصادرها من الطبيعة
البشرية والعلل الفلسفية ولكننا نستطيع أن نعتمد على
تجربتهم في التنويع والافتنان ، لانه عمل يراولونه كل يوم ،
ويعرفون خطوات الانتقال فيه من فن الى فن ، ومن
أسلوب الى أسلوب ، واو لم يكن هذا الاختلاف في الاساليب
الا اختلافا في التعبير والتنميق

ومن أمثلة الاجتهاد في التفرقة بين موضوعات الضحك
والفكاهة كتاب مزاج الفكاهة The Humour of Humour
لمؤلفه ايفان ايسار Evan Esar الذى اشتغل زمننا
بكتابة الفكاهيات وتقسيمها وترتيب أقسامها ، وأراد بكتابه
هذا من عنوانه الى خاتمته أن يكون تطبيقاً لآرائه واختباراته،
لان العنوان نفسه يشتمل لعباً بالالفاظ كاللعب الذى يدخل
في النكات الجنسية ، لان كلمة « هيومر » بالانجليزية تأتي
بمعنى المزاج وتأتى بمعنى الفكاهة وتدل على اخلاط الجسم
في مذهب الاقدمين كما تدل على وسائل تعديل هذه
الاخلاط بالدواء أو بتطبيب الخواطر وتنزيه النفوس
ولا تحصى أفانين الضحك والفكاهة كما شرحها المؤلف
في كتابه ، ولكننا نشير الى بعضها على سبيل التمثيل ،
وندع للقارىء أن يقيس عليها من تجاربه ما يشاء
فمن هذه الافانين « الملاحظة المزدوجة أو الملاحظة اللاذعة »
ومثالها كلمة تقال عن الزواج من أجل المال : « انه يصلح
أبا لها بسنه ، وزوجا لها بثروته »
أو كلمة تقال عن البخيل : « انه يضع نقوده في الحشية
فهى : « محدثة لطيفة .. استطعت أن أفلت منها » ..
أو كلمة تقال عن البخيل : « انه يضع نقوده في الحشية
ليجد تحته شيئاً يستند اليه »
ومن هذه الافانين « الأبدية » أو العبارة الشاردة ، والفرق
بينها وبين الملاحظات السابقة أنها اقرب الى المثل السائر
الذى يسهل تعميمه ولا يخص أحداً بعينه . وأما الملاحظات
السابقة فأكثرها يقال عن الاشخاص أفراداً بغير تعميم ،
ويدور على شئونهم ولا يدور على المواقف والاطوار

ومن أمثلة النكتة الأبدية أو العبارة الشاردة أن الاخلاق
طلاء تمسحه الخمر ، وأن السن تخون أصحابها لأنها تدل
على السنين ، وأن الحكيم حين تقنعه حكمته بأن يتزوج
يصبح الاحمق زوجا وله أبناء ، وأن لابس النظارة «منظره
بغيرها أحسن ونظره بغيرها أقبح ! » وأن الأمريكين أحرار
لأنهم « يأخذون » حريات كثيرة !

ومنها اللفز ، وعماده على المغالطة ، أو على جمع
المتشابهات التي تختلف في الحقيقة أبعد اختلاف

ومثاله أن يسأل السائل : « لماذا وضعوا واشنطنون
على تل ؟ » فيجيب المجيب : « لأنه مات » !

أو يسأل السائل : « ماذا الشيء الذي يصنعه الرجل واقفا
وتصنعه المرأة جالسة ويصنعه الكلب على ثلاث ؟ »

والجواب : « المصافحة أو تحية السلام عند اللقاء »
ومن أفانين الفكاهة الجناس اللفظي ، وهو يشبه اللفز
في السؤال والتورية

يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الفلاسفة والمرايا ؟ »
والجواب : « التأمل والنظر » !

أو يسأل السائل : « ما وجه الشبه بين الكتاب
والشجرة ؟ »

والجواب : « كلاهما له ورق ! »

أو يسأل السائل : « ترى هل يحاسب الرجل على قتل
الوقت اذا حطم الساعة ؟ »

والجواب : « كلا ! اذا ضربت الساعة أولا »

ومن هذه الافانين المساجلة والمحاورة ، وقد يكون السائل
فيها هو المجيب

تقول لى : « لماذا تشرب الخمر ؟ . . قل لى ماذا تقترح أن
أصنع بها ؟ »
وتسألنى : « أى الدجاج أطول رقادا ؟ كيف ؟ ألا تعلم ؟ . .
الذى مات ! »

ومنها الظن المختلف وهو يتوقف على الموقف ، وتعدد
المشاركين فيه ، ووجود اللبس الذى يدعو الى اختلاف
الظنون ، ومثاله قصة عن أربعة فى مقصورة قطار : فتاة
حسنة ، وامرأة عجوز ، وكهل فرنسى ، وضابط ألماني أثناء
احتلال الالمان باريس . ودخل القطار نفقا فسمع فى المقصورة
صوت قبلة وصفعة ، ثم خرج القطار من النفق وهم
صامتون وعلى وجه الضابط الالماني أثر صفعة . فقالت
المرأة العجوز لنفسها : « ما اطهرها من فتاة » ! وقالت
الفتاة الحسنة لنفسها : « عجبا له . يقبل العجوز ولا
يقبلنى ؟ » . وقال الضابط الالماني : « ياله من فرنسى
خبيث . غنم القبلة ، وغنمت أنا الصفعة ! » وقال الفرنسى :
« لقد نجوت بها . قبلت ظاهر كفى وصفعت الالماني ، ولم
يتهمنى أحد » !

ومنها النادرة ، وهى نكتة لا بد لها من قصة تتعلق
بصناعة أصحابها أو بعملهم وقواعده المتعارف عليها : كان
مارك توين - الكاتب الفكاهى المشهور - يعمل فى إحدى
الصحف ، وتكاد الديون تستغرق مرتبه ، وكان من عادته
أن يهمل كل انذار يأتى من صاحب دين . واتفق يوما أن
كاتبا من مساعديه كان الى جانبه ، وهو يهم بأن يلقي بعض
هذه النذر فى سلة المهملات . فنبهه الكاتب قائلا : « انتظر
ياسيدى . فان فى ظهر الورقة كلاما يقول فيه صاحب الدين

انه سيقاضيك ان لم تسرع الى السداد » . فقال له مارك
توين كانه ماض في عمله : « ألا تعلم يا صاح أن الورقة التي
تكتب على وجهين تهمل في هذا المكان ؟! »

ومنها الكلمة التي تقال وتفهم على معنيين ، أحدهما يسر
والآخر يزعج أو يخيف ، وتشبهها كلمات الجناس كلما
دأت على تقيضين

يقول الرجل لزميله في بلاد النيام نيام أكلة البشر : « أن
الزعيم يريدك للغداء »

أو يقول فرنكلين وهم يكتبون وثيقة الاستقلال : « يجب
أن يتعلق بعضنا ببعض والا تعلقنا على انفراد »

أو يقول الشيطان : « الفضيلة في الوسط » ، وهو يجلس
بين رجلين من رجال السياسة !

أو يقول قدح الماء للبرشامة : « تقدمي وأنا بعدك » . .
وفيها مثل لظاهر التحية وباطن الاشتراك في البلاء !

أو تقول الفتاة لمن يغازلها : « أنا كالقاطرة . . ان لمستنى
صرخت » !



ومما أحصاه الفكاهيون المعاصرون من أساليب التعبير
الفكاهي أسلوب القلب والعكس ، ومن أمثلته : « ان الحب
يذهب بالزمن وان الزمن يذهب بالحب » ومنها : « أن
بعضهم يحب أن يشاهد الصور المتحركة ، وبعضهم يشاهد
الصور المتحركة ليحب » ومنها : « ان الانسان يخلق
المتاعب وان المتاعب تخلق الانسان » ومنها : « أن من يتعمق
الى أساس الامور ترفعه الامور الى الذروة العليا » ومنها :
« ليس الضحك بداية سيئة للصداقة ولكنه نهاية حسنة »

وتكرار الكلمة في مواضعها فن من فنون الفكاهة ، تكرار
ذكر الذكاء في هذه العبارة :

« الفتاة الذكية أذكى مما يبدو عليها لان الفتاة الذكية
لا تبدى ذكاءها »

أو هذه العبارة : « غير المتوقع يقع أحيانا حين لا تتوقع
من المرء ما هو خليك أن يقع منه »

أو هذه العبارة : « علينا ان ننسى انفسنا لنشعر بالسعادة
ولكننا لا نسعد اذا نسينا ان ننسى انفسنا »

والنسيان المعهود في العلماء والمعلمين يضحك أو يحسب
من أسباب الفكاهة ، وتروى لذلك قصص كثيرة هذه أمثلة
منها :

« جلس أستاذ في مكتبه بالمنزل وهو في قلق شديد على
زوجته التي أدركها المخاض ، واذا بقريبة له تفتح المكتب
لتبشره بولادتها وتصيح به : « انه ولد » .. ويكون قد
ذهل عما حوله فيسألها : « وماذا يريد ؟ » ! »

وذهب أستاذ الى طبيب فقال له : « اخرج لسانك »
ثم قال له : « لسانك في حالة حسنة ولكن ما هذا الطابع
الذي عليه ؟ » .. فابتسم الاستاذ وقال : « أهو هناك
وانا أحسبني وضعته على الفلاف ! »

واكذوبة ابريل وما جرى مجراها فن من هذه الفنون
الفكاهية ، يقول مارك توين : « ان أول ابريل يوم واحد في
السنة يذكرنا بغفلتنا في جميع الايام »

ويقول المتندرون بهذا اليوم ، ان الذين يولدون فيه
يكتمون تاريخ ميلادهم ليثبتوا وجودهم ويستريحوا من
ولع الناس بتذكيرهم ما يحاولون كتمانهم ، وكذلك من يولد

فى اليوم التالى أو اليوم السابق . . ولكنهم يطلقون اسم
مغفل ابريل على كل ضحية تجوز عليه الاكاذيب فى يوم
مجعل لهذه الاكاذيب

والعثرة اللسانية أو القلمية تضحك وتهىء النفس
للفكاهة ، ومن قبيلها قول بعض الخطباء على اثر حفلة
موسيقية من الحفلات التى لا تكثر فى القرى : « انها لحسن
الحظ حفلة نادرة » . . ويشبه هذه العثرة أن طبيباً كتب
شهادة وفاة فوضع اسمه فى موضع سبب الوفاة . . بدلا
من موضع التوقيع !

والغلطة مع حسن النية تثير الفیظ فیمن یصاب بها
وتثير الضحك فیمن يشاهدها ، واحدى النوادر المروية عن
هذه الغلطات أن صاحب حانة كان يقف وراء البنك فى حانته
اذ هجم علیه قادم مستعجل وسأله فى لهفة : « أعندك شىء
یزیل الفواق ؟ » فلم یجبه صاحب الحانة ولكنه ضربه
بالفوطه المبلولة على وجهه ، فنظر الرجل الیه شزرا وهم
أن یبطش به لولا أن بادره صاحب الحانة معتذرا ، وقال له
اننى أرحتك بهذه الضربة من الفواق . . ثم ظهر أن الرجل
لم یکن به فواق وانما طلب الشراب الذى یزیله لزوجته
التى كانت فى السيارة عند الباب !

وقد یتبع الغلطة حسن التخلص فتضيف الیه فكاهة
على فكاهة :

اخذ بعض المدعویین الى احدى الولاثم فى حدیث مع
جارته ، واحب أن یبدأه بالفیبة والنقد لانها من الاحادیث
المحبوبة فى أمثال هذه المجتمعات ، فأنحى بالذم والوقیعة
فى رجل لا یعرفه على مسافة منهما ، وفاجأته السیدة

قائلة : « ويحك ! انك تعنى زوجى ! »

قال : « نعم ! ولهذا أكرهه ! »

وأراد طبيب مستشفى المجانين ان يتصل برقم يحتاج الى التحدث مع صاحبه على عجل ، فجن جنونه لاهمال العاملة ومراوغتها فى الجواب ، وصاح بها محتدما : « ويلك ! أتعلمين من أنا ؟ » قالت : « لا . ولكنى أعلم أين أنت ! »

والغلطة المطبعية احدى الغلطات الفكاهية او المضحكة ، وهى خاصة بكل لغة قلما تصلح للترجمة الى لغة اخرى ، واكننا نضرب لها الامثلة بما عرفناه من غلطات المطبعة عندنا واحداها غلطة الصفاف فى نقل السطور بين اعلانات الزواج واعلانات الوفيات ، فاذا بالخبر يقرأ ان العروس تقبل التهنة من المدعوين ثم شيعوه بالرحمات والدعوات

وحدث فى الاحتفال برفع الستار عن تمثال نهضة مصر ان حكامدار العاصمة وقف على مقربة من كبار الرؤساء وقبعته على رأسه ومنشته فى يده ، فعلقنا على ذلك فى كتابة اخبار الحفلة ، واضطربت السطور بين يدى الصفاف فجرى الخبر على هذا المثال :

« وحضر فلان وفلان وصاحب الفضيلة الاستاذ الاكبر شيخ الجامع الازهر ، ولوحظ عليه أنه كان يلبس قبعته ويعبث بمنشته وهو على مقربة من كبار ولاة الامور » وكتب بعض المخبرين حديثا مع مستر فريدرك ، فاذا به يسمى مستر فريد بك !

وغلطات المطبعة من هذا القبيل لا تحصى فى جميع اللغات ولكنها تزداد فى اللغة العربية لتشابه بعض الحروف وحسن التخلص وحده قد يحول الموقف من الغضب

الى الضحك ، ولو عرف السامع أنه ملفق للخلاص من
الخرج واللوم

ذهب عريس مع عروسه الى محطة السكة الحديد للسفر
الى ضاحية يقضيان فيها شهر العسل ، ثم عاد الى عروسه
من شباك التذاكر ومعه تذكرة واحدة ، فصاحت به مغضبة :
— ما هذا يا عزيزى ! تذكرة واحدة ؟

فما كان أسرع منه الى الاعتذار بالكلمة الوحيدة التى
تخطر على البال ، ولا يخفى على الزوجة أنها عذر مختلق
للخلاص من هذا المأزق الاليم فى مطلع شهر العسل ، قال :
— ما هذا يا عزيزتى ؟ لقد أنسيتنى نفسى !

وفوجئ موظف فى مصرف وقد أغمض عينيه وكاد أن
يستسلم للنعاس

قال الرئيس : « أنائم فى أول النهار ؟ »

قال الموظف « اليقظ » : « على رسلك ياسيدى الرئيس ،
ألا أستطيع أن أغمض عينى لحظة للصلاة قبل بدء العمل ؟ »



ويذكرون من ضروب الضحك خيبة الحيلة وارتدادها
على صاحبها ، أو ظهور الخديعة على من يفرط فى الذكاء
فلا يلبث أن يبدو لنفسه ولغيره كأنه مفرط فى الغباء

دخل رجل على طبيب فى « عيادته » فاعتقد الطبيب أن
الزائر مريض يطلب العلاج ، وأراد أن يوحى اليه بمقدار
أجرته فى غير مساومة ، فعمد الى التليفون وأداره وراح
يقول لمحدثه المزعوم : « نعم ! أنا الدكتور جونسون ! اننى
مشغول جدا .. تسأل عن القيمة المطلوبة ؟ .. انها كما

أخبرتكم خمسمائة ريال . . وأنت تذكر هذا ؟ حسن . الى اللقاء اذن ! »

ثم وضع سماعة التليفون والتفت الى الزائر متسائلا :
« ماذا أستطيع أن أصنع لك ياسيدى ؟ »
فأجابه الزائر : « لا شيء . اننى موظف مصلحة التليفونات
الذى طلبته لاصلاح تليفونك ! »

وكان موظفان يعملان فى مكتب واحد ، يفرغ أحدهما من
عمله نحو الساعة الرابعة كل يوم ، ويبقى الآخر بعده ساعتين
أو أكثر لانجاز عمله . فسأل هذا صاحبه ذات يوم : « كيف
تنجز عملك فى هذا الموعد ؟ » قال صاحبه : « اننى لا أنجزه
أيها الزميل ، ولكننى كلما صادفت مسألة معضلة كتبت على
الورقة : يعرض على مستر سمث . ولا بد أن يكون فى هذا
المكتب « مستر سمث » واحد على كل حال ! »

فخلع صاحبه سترته ونظر اليه متحديا وهو يقول
كمن نشط من عقال : « الآن تبقى أنت للساعة السادسة . .
أنا مستر سمث الذى تجهله . فاعرفه بعد اليوم ! »
ومن أساليب الفكاهة الاقضية التى يسمونها بالاقضية
السليمانية :

اتهم رجل بالسرقة ، فأراد المحامى أن يجر القاضى الى
شرك يغريه بالوقوع فيه ، وتحذلق فى دفاعه متعمدا فقال :
« انكم تعاقبون رجلا كاملا بعمل ذراع واحدة هى التى
جذبت السلعة المأخوذة من وراء القضبان »
قال القاضى ، وهو يظن انه أوقع المحامى فى شركه :
« حسن ! نحن نحكم على الذراع بالسجن ستة أشهر ،
ولينطلق صاحبها حيث يريد »

فخلع المتهم ذراعه المصنوعة وهم بالانصراف !



والمفارقة احدى هذه المضحكات ، وعلى نحوها نصيحة
الناصح : « لا تقص على الاصلح حكاية يقف لها الشعر .
فهو جهد ضائع »

وعلى نحوها تحذير المحذر : « لا تقتل الرجل الذى قبل
زوجتك اليوم ، فانك لم تقبلها منذ سنة ! »
ويأتى الضحك من تناقض المعانى الكثيرة فى هذا التحذير
فمنها أن الرجل الذى قبل الزوجة لقي عقوبته التى
تساوى القتل

ومنها أنه قام بواجب أهله الزوج

ومنها أنه لازم فى المستقبل

ومنها أشباه ذلك كثير . . .

وعلى نحوها : « ان غاية الكسل ان تستيقظ عند الفجر
لكى تجد وقتا طويلا للدوران »

والصورة الهزلية ، فى الكلام ، أهم هذه المضحكات ،
ومن هذه الصور أن فلانا بلغ من طول وجهه أن الحلاق
يتقاضاه أجر الحلاقة ضعفين ، وأن فلانا بلغ من ضخامته
أن ظله وقع على رجل فمات ، وأن فلانا بلغ من طوله أنه
يصعد على كرسى ليغسل أسنانه !

وسرعة الجواب مع المغالطة فيه لون من ألوان الفكاهة
وتهيئة النفس للضحك

مصور له أولاد قباح يداعبه ناقد فيعجب له كيف يصنع
أولاده بهذا القبح ويطنع صورته بذلك الجمال
والمصور يجيب : « لا عجب ياسيدى . أولادى أصنعهم

في الظلام وصوري أصنعها في النور !
وتقول فتاة لزميلتها : « لقد رفضت الزواج من فلان ،
وهو منذ ثلاثة أشهر عاكف على الشراب »
فتقول الزميلة وهي تصطنع الجذ في الجواب : « هذا
الذي نسميه مبالغة في احياء الافراح !
وتهزأ سيدة من زميلتها المؤلفة فتسألها : « من الذي
الف لك كتابك الاخير ؟ انه بديع »
وجواب المؤلفة من جنس السؤال : « سرني والله انه
أعجبك . . من الذي قرأه لك ؟ »



وتعد «المقالب» من بواعث الضحك ، وهي الاكذوبة التي
توقع السامع في بعض الفرغ أو بعض التعب ،دون أن يصحبها
ضرر اليم . والمبالغة فيها كاختلاق أخبار النعي ، والاعتدال
فيها كالدعوة الى وليمة ، ولا وليمة! او تقديم الحلوى وفيها
دواء . . غير مطلوب



ومن الفكاهة اتباع الحكمة بحكمة أخرى توافق مقدماتها
ولا تخطر في الحسبان ، ومن أمثلتها أن الالفه في الحب تولد
الاحتقار . . والاطفال ، وأن الفتاة التي تشبه الكتاب المقروء
توضع مثله على الرف ، وأن تفاحة في اليوم تبعد عنك
الطبيب ، ولكن بصلة في اليوم مفعولها أكيد . . تبعد عنك
كل انسان ، وأن اثنين لازمان المشجار ، ولازمان أيضا
للزواج ، وأن المال ينطق . . والمال يخرس !

والسخرية احدى هذه الالوان ، ومن السخرية أن يقول

القائل جادا كأنه يعنى ما يقول : « ما بال فلان ينتقم منى كل هذا الانتقام ؟ اننى لم أحسن اليه كل هذا الاحسان ؟ »
وذهب فتى الى شباك البريد ، فوجد الموظفتين فى شغل عنه بحديث طويل عن زى فستان السهرة الذى كانت تلبسه احدهما ، فتأنق الفتى فى الوصف والرجاء ، وطلب الى احدهما أن تتفضل باعطائه طابعا قرمذى الوشيط وردى الحافة منقوش الاطراف والجوانب ، ومشغولا كله ولا يساوى مع هذا أكثر من ثلاثة مليمات !

والمحاكاة باب من أبواب السخرية ، تتشابه الامثلة عليها ، ويدخل فيها التهكم والمجارة

خلا أحد المدعوين باحدى المدعوات فى سهرة الرقص فقبلها ، واستجابت لقبلة لحظة غير قصيرة ، ثم قالت له بعد ان افترقت شفتاها وشفتاه : « أتعلم انها أول قبلة وضيت بها فى حياتى ؟ » فقال الفتى كأنه يجاريها : « نعم . لانك على ما يظهر ورثت الشئ الكثير بغير تعليم »

وتحدث بعض الجلساء فى دعوة عامة عن الثروة ووسائل جمعها ، كأنه يوهم السامعين أنه من أصحابها ، فأثنت احدى الجالسات على سرعة فهمه ، لانه يعرف الكثير عن المكاسب مع قلة ما يكسب !



والنصائح المطردة ، مع القياس الظاهر ، مع استحالتها بعد التأمل اليسير ، أحد هذه الاقسام التى اصطلحوا على تقسيمها فى الصحافة الفكاهية ، ومن قبيلها هذه النصائح :
قل لا لمن يهتمون بالزواج

وقل لا لمن يهمون بالطلاق
وقل لا لمن يهمون بالموت
وقل لا لمن يهمون بالولادة

ويتمشى على أسلوب هذه النصائح الهازلة جواب رجل
أصيب بالزكام وأشار عليه صديق بوصفة ناجعة ، فقال له :
« نعم . اليوم أعمل بوصفة جونس ، وغدا بوصفة سميث ،
وبعد غد بوصفة براون ، فان بقيت منى بقية لوصفتك يوم
الاحد فهو دورك ! »

وقد تطرد الوصايا التالية مع هذا النسق من النصيحة :
« لا تطرد الذبابة من جبهة امرأتك بمطرقة !
« لا تقلق اذا علمت أن كل شيء يذهب في الفسيل ، حتى
البدلة !

« لا تنتفخ وانت تعلم أن الصفر أسمن الارقام !
« لا تحمل هم الزبدة . انك تصنعها من حشائش الارض ،
متى تيسرت البقرة !

« لا تتردد في بذل النصيحة ، لا أحد سيسمعها
« لا تعمل بنصيحة ، وأولها هذه » !



وعندهم فكاهة يسمونها فكاهة « قبل وبعد » مدارها
على المقابلة بين هذين الطرفين في مسائل الزواج على
الخصوص ، وهذه أمثلة منها :

« قبل الزواج تقبل الفتاة الفتى لتربطه ، وبعد الزواج
تربطه لتقبله

« قبل الزواج يأخذ الرجل بيد المرأة حبا ، وبعد الزواج
يأخذ بيدها دفاعا عن النفس

« قبل الزواج يقول الرجل لابد أن ينفذ أمرى فى منزلى
أو أعرف السبب ، وبعد الزواج يعرف السبب !
« قبل الزواج يسعى الرجل الى المرأة ، وبعد الزواج
يسعى للمرأة !

« قلما يكون الرجل بالمزايا التى تراها فيه المرأة قبل
الزواج ، وقلما يكون بالعيوب التى تراها فيه بعد الزواج
« فى بعض البلاد الشرقية لا يرى الزوج امرأته قبل
الزواج ، وفى البلاد الغربية لا يراها بعده ! »
ويلحق بهزه الزوجيات تهكم المحدثات والمحدثين من بنات
« الدقة القديمة » كما يقال فى مصر باللغة « البلدية » ..
ومنه أمثال هذه المقارنة :

« البنت من الدقة القديمة تحمر اذا خجلت ، وبنتها
العصرية تخجل اذا احمرت !
« والبنت من الدقة القديمة كانت تذهب الى المدينة
وتقف عند جماعة الشابات المسيحيات ، أما بنتها العصرية
فانها تذهب الى المدينة ولا تقف عند شىء !
« والبنت من الدقة القديمة كانت تشعر بالاهانة اذا عرض
عليها الشراب ، وأما بنتها العصرية فتبلع الاهانة
« والبنت من الدقة القديمة كانت لا تجسر على تناول يد
فتاها ، ولكن بنتها العصرية لا تجسر على تركها
« والرجل من الدقة القديمة له رأس يصلح للحسابات ،
ولكن ابنه العصرى له عين تنظر اليها ! »



وهم يصطلحون على تسمية انسان مشهور ينسبون اليه
الحكمة التى يخترعونها لساعتها ، من قبيل قول الشرقيين

« قال الراوى » عند اسناد الكلام الذى يعلم السامعون انهم
مخترعوه

وأشهر هؤلاء الحكماء المختارين للاسناد الصادق والمدعى
حكيم الصين كونفشيوس

فمن كلامه المزعوم ، قال كونفشيوس : « الرجل الذى
يسوق بيد واحدة يصطدم بالكنيسة »

وهم يعنون بذلك خطر الزواج ، لان الرجل الذى يسوق
بيد واحدة يخاصر امرأة معه فى السيارة باليد الاخرى

ومن كلامه المزعوم ، قال كونفشيوس : « الفتاة التى
لها مستقبل تحذر الرجل الذى له ماضى »

ومن كلامه : « الرجل الذى يغازل المرأة على المصعد
ليس فى مستواها ! »



ومن الاضاحيك ضرب من المزاح الفارغ الذى يشبه
ما يسمى فى الزجل العربى الحديث بالدور المجنون

يسأل السائل محدثه : « ألم أرك فى بلدة بقالو ؟ »

فيجيبه محدثه : « لم أذهب قط الى تلك البلدة »

ويعود السائل فيقول : « ولا أنا ! »

ويجرى الحوار بين اثنين على هذا المنوال :

— ماذا تصنع ؟

— أبحث عن ورقة ضائعة

— أين سقطت منك ؟

— فى الشارع الثامن والثلاثين

— لكننا فى الشارع الاربعين !

— نعم ، أعلم ذلك ، ولكن هنا نور !

والحكمة التى « يفت » منها درسها محسوبة فى هذه
الاضاحيك :

تقص المدرسة على الاطفال قصة الحمل الذى لم يسمع
كلام أمه فأكله الذئب ، فيقول أحد الاطفال فى براءة أو فى
خبث : « والحمل الذى سمع كلامها أكلناه نحن » !
أو يقول المدرس لتلاميذه الصغار : « ان العصفور المبكر
يلتقط الدودة »

فيقول أحدهم : « والدودة المبكرة يلتقطها العصفور » !
ومن المفيد أن نلاحظ هنا أن هذه « التقسيمات » لاتبدو
غريبة للقارئ العربى الذى ألم بعلوم البيان والمعانى والبديع ،
لان الكثير منها مقرر بتعريفاته وأمثله وشواهد فى تلك
العلوم ، ومامن قارئ عربى ألم بعلوم البلاغة بعض الامام
الا وهو يعرف التورية والمقابلة والمشاكلة ، والهزل الذى
يراد به الجذ ، وتأکید المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل
العارف ، والاضمار فى مقام الاظهار ، واخراج الكلام على
خلاف مقتضى الظاهر ، والتشبيه الملفوف والمفسروق ،
والفصل والوصل ، والقلب والالتفات والتغليب ، والكناية
والتحريف والتصحيف

كل هذا مألوف للقارئ العربى من بلاغة لفته ، كما يآلف
من كتب الصناعة اللغوية جميعا محكم القول فى جوامع الكلم
والفرائد والاوابد والمثل السائر واللحن الذى يحسب من
الالغاز والالغاز التى تحسب من ضروب الرمز أو الابهام
والتعمية

الا اننا لم نشأ أن نطلق هذه التقسيمات والتعريفات على
ضروب الفكاهة المصطلح عليها بين المشتغلين بالكتساب

الصحفية وما إليها، لأن مصطلحات الصناعة اللغوية وضعت في لغة العرب لتمييز درجات البلاغة ومعانيها ، ولم توضع هذه المصطلحات الحديثة عند الغربيين لشيء من ذلك وإنما وضعت للفرقة بين موضوع وموضوع من مادة الصحافة الفكاهية

وأمر آخر يبعد بين هذه المصطلحات الحديثة وبين مصطلحات علوم البلاغة العربية . وذلك أن المصطلحات الحديثة لفنون الإيضاح لم تزل على فجائها الأولى ولم تبلغ بعد من الدقة في الأسماء والتعريفات والشواهد مبلغ نظائرها في علوم البديع والمعاني والبيان ، وقد يختلط بعضها لاتفاقه في مصدر الشعور وأثره فلا يتم التعريف بينها إلا بحكم العادة بين المشتغلين بعمل واحد يعرفون مواده وأجزائه بالإشارة والنظرة العابرة ولا يلزم أن يقيموا الحدود بينها بالفواصل المنطقية أو النفسانية

على أن الاختلاف بين عناوين الفكاهات - ولو بحكم العادة - جدير أن نتوقف عنده وننتظر ما يليه من التعريفات والتقسيمات التي ترجع إلى اختلاف في أصول الموضوعات أو اختلاف في طبيعة الشعور . وسوف يأتي الوقت الذي نميز فيه بين ضحكة وضحكة كما نميز بين كلمة وكلمة ، ونعني بذلك تمييز الفهم والتفسير ولا تقصر الأمر على تمييز الشعور والتلبية النفسانية ، فإننا الآن نميز بشعورنا بين ضحكات مختلفات كما كان آباؤنا وأجدادنا يميزون بينها بتبادل الشعور والتلبية بين نفس ونفس ، وليس هذا ما يعنيه طلاب التمييز بين أفانين الفكاهات والمضحكات في الدراسات العصرية ، سواء قصدوا من هذا التمييز تسير العمل

بين المشتركين فيه كما يتيسر للعاملين في حانوت واحد أن يميزوا أنواعه بحرف مرقوم على الرف أو علامة منقوشة على الصندوق ، أو قصدوا من هذا التمييز أن ينفذوا الى ينابيع الشعور المتعمقة في النفس البشرية ، حيث تصدر المضحكات والمبكيات وتكمن أسباب الفرائب والمألوفات ، وما ينبغي لنا أن نزع أننا نفهم نفوسنا حق فهمها ونحسن نجهل الفرق بين ما يضحكها وما يبكيها وما يقع منها موقع الالفة أو موقع الغرابة في أعماق الاعماق

وربما كان اسم « الضحك » مغريا بالاستخفاف منافيا للجد في بواعثه ومعانيه

ولكن البحث عن أسباب الضحك جد كأصدق الجدالذي يعرفنا بنفوسنا كما يعرفنا بها أعظم العظام وافدح المحزنات . بل ربما كان الامر « المحزن » يسير التعليل لاننا لا نحار فيه ولا يخفى علينا أنه يرجع الى حب السلامة وكراهة الضرر والاصابة ، وربما كان لنا نحن الادميين شركاء في الشعور بالمحزنات بين الحيوانات العليا وبعض الحيوانات الدنيا ، لان الحزن عندها بمثابة رد الفعل الجسداني لكل الم وكل مكروه . أما الضحك فليس من سهولة التفسير بهذه المنزلة ، ولا سيما الضحك الذي يتشعب ويتفرع وتتباعده مصادره من النفس أو تتقارب - مع التفرقة بينها في الاسماء - حتى يلتبس موضوع منها بموضوع وعنوان بعنوان

هذه عوارض نفسية يختص بها الانسان ولا يشاركه فيها حيوان من الحيوانات السفلى او العليا ، بل يعتقد الكثيرون من علماء الاجناس البشرية أن القبائل البدائية من الناس لا تضحك ولا تدرك الضحك ، وان هذه الظاهرة

الترقية في سلم الانسانية لا تشاهد بين الهمج الا بعوارض
العصبية التي لا تدخل في حيز الارادة ، كأنها ضحكة الممرور
او ضحكة المتشنج ، وحتى هذه الضحكات التي تشبه
العوارض المرضية لا تشاهد بين الهمج على كثرة تجعلهم
يلتفتون اليها ويسمونها بكلمة من كلماتهم القليلة ، فهي
والتخبط من الصرع عندهم سواء

لاجرم يجد الفلاسفة غاية الجد في النظر الى الضحك
واسبابه منذ عهد بعيد ، ولا جرم يجدون اليوم وغدا في هذه
الدراسة بين نفسانيين واجتماعيين وتقاد للفنون والآداب
ونحن في هذه الرسالة نريد أن نعرف « جحا » ونريد أن
نعرف الانسانية كلها بهذه المعرفة

وربما كان بعض ما تقدم من التعريفات مفيدا لنا في
وضع جحا بموضعه من الحياة الانسانية حيث كانت في كل
مجتمع وكل حقبة وكل عنصر وكل قبيل ، فان بعض هذه
التعريفات يرينا أن « جحا » ليس بالغريب المجهول
في بيئة من البيئات التي تضحك كما نضحك وتستغرب من
نواذر جحا وبوادره مانستغرب ، وبعض الامثلة التي تقدمت
نستطيع أن ننسبها الى جحا فلا تخالف في معدنها ما ينسب
اليه ، وهذه احدى العلامات على سريان الضحك مسرى
اللغة بين بنى الانسان ، فهو كاللغة يؤدي لجميع الناس
معانى مشتركة يتقاربون بها على تباعد المنازل والاجناس ،
وهو كاللغة يختلف بين وطن ووطن وبين جنس وجنس ،
كما يختلف بين قائل وقائل في مناهج التعبير بين المتكلمين
بلسان واحد في أسرة واحدة

وسنعرف « جحا » حقا حين نعرف لماذا يضحك الناس

عامة بغير اختلاف ، ونعرف لماذا يضحكون خاصة من
شيء دون شيء ، ومن انسان دون انسان
وسنجد « جحا » واحدا ولكنه « جحا » الناس اجمعين،
لان الناس اجمعين يضحكون منه وان لم يظهر في غير موطن
واحد أو موطن متشابهة تحسب كالوطن الواحد . لان
الانسان حيوان ضاحك حيث كان ، ولعله ضحك آلاف
السنين ولم يفهم بعد أسباب الضحك على جليتها ، وسنرى
— بعد — مقدار ما فهمه ويفهمه
وسنضحك من بعضها وهى صحيحة أو باطلة ، فنتعلم
من الضحك كيف نتلقى تلكم الاسباب



لماذا نضحك؟

بعض الناس يحبون المتعة ولا يعنيهـم لماذا يستمتعون بها ، وبعضهم تتم متعته بها اذا عرف أسبابها

قلت فى الكلام عن سارة وهمام من قصة سارة : «تسرب الى المنزل انباء الاصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة فى معظم الايام ، فيقرآن أو يسمعان بعض الاغانى ، أو يلعبان الدومينة قليلا ، وهى لعبة تحذقها سارة ، ويعتقد همام انها اصح الالعاب واشدها مطابقة للحياة . . . فالشطرنج والضامة يعولان على الحيلة ، وكل شىء فيهما مكشوف بعد ذلك ، والنرد يعول على المصادفة والذكاء ، وكل شىء فيه مكشوف بعد ذلك ، والورق اما مصادفة واما صراع قلما يشبه صراع الحياة . . . اما الدومينة ففيها حساب للمصادفة ، وفيها حساب للتدبير ، وفيها حساب لليقين ، وفيها حساب للظنون ، وفيها حساب للغيب الذى تجهله انت وخصمك ، وللغيب الذى تجهله انت ويعرفه خصمك أو تجهله هو وتعرفه انت ، وللعيان الذى يعرفه كل من يشاء . ولها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك ، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما فى يدك

» قالت سارة يوما ، بعد ما استعادته شرح فلسفة الدومينة للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة : « أولا تستمتع بشىء الا أن تكون له فلسفة ؟

قال : « لا . بل انا استمتع بالشىء ثم أبحث عن

فلسفته ، واننى لأبحث عن فلسفته كما يجيل الشارب
الكأس فى جميع جوانب فمه ولهواته ، كى لا يبقى جانب
من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه ، فأحسه وأعمله
وأذكره وأفكر فيه وأستقصى معناه . . »



وأقول فى صدد البحث عن أسباب الضحك اننى أشبه
هماما فى هذه الخليقة ، واننى أحب أن أفهم ما أحسه
وأن أحس ما أفهمه ، واننى جريت على ذلك فى البحث عن
أسباب الضحك منذ بدأت الكتابة وتدوين الخواطر والافكار
بين الخامسة عشرة والعشرين ، ولهذا أذكر هذه العادة فيما
نحن بصددده . لأننى اذا مررت بما اعتقدته من أسباب
الضحك قبل العشرين وبعد العشرين وفى خلال النظر
والمطالعة والتجربة الى اليوم - تدرجت بهذه الاسباب
فى أطوار طبيعية تعين على المقارنة والتتبع والوصول الى
النتيجة

كانت لى فى نحو السادسة عشرة مفكرة يومية أدون فيها
خواطرى وتعليقاتى جمعتها بعد ذلك باسم خلاصة اليومية
وحذفت منها عند الطبع كثيرا من الخصوصيات التى ترتبط
بتلك الخواطر لا أذكره الآن

وأحسبنى قد كتبت فيها عن المضحكات أكثر مما بقى
فيها بالنسخة المطبوعة ، ولكننى لاحظت فيها أن المضحكات
أكثر من الضحك وقلت بهذا المعنى فى الصفحة السادسة
عشرة من النسخة المطبوعة :

« ان المضحكات ليست بالقليلة ، ولكن الذين يحسنون
صناعة الضحك هم القليلون . فليس من الضرورى أن

نفتش عن رجل من أمثال مولير لنغرب في الضحك ، فان
في كل رجل من الذين نراهم ونعاشرهم موطننا للنقص ، وفي
كل عمل موضعا للكلفة والتصنع . . . والوادم الناعم البال
— ولو كان مغمورا بالشقاء — ذلك الرجل الذى يعرف
كيف يفطن الى مواطن الغرور والرياء من أعمال الانسان ،
فاته لا يطبق فمه ما دام يفتح عينيه »

وهنا كنت أقرن أسباب الضحك بملاحظة النقص والادعاء
والغرور والكلفة التى يحاول صاحبها أن يخدع الناس عن
الحقيقة ، وهى واضحة لمن يلتفت اليها

ولا اذكر اننى تحررت الترتيب عند طبع الخواطر
والمفكرات ، ولكننى أجد فى الصفحة الثالثة والاربعين هذه
الخاطرة عن الضحك ، وفيها أقول أن « للضحك عدة
أسباب أكثرها يدور حول محور واحد هو الاغتيال
بأنفسنا ، اما بما نحسه من كمالها أو بسلامتنا من النقص
الذى نكشفه فى سوانا

» ولما كان الانسان لا يضحك الا سرورا برجحانه فهو
لا يضحك فى الاحوال التى رجحانه فيها معروف غير
محدود . فالرجل المعروف المكانة ليس يضحك من تصرف
الصعلوك الوضيع وان كان مضحكا فى ذاته ، الا اذا كان
يسخر من أهل طبقة ليباهى بطبقته أو من أهل بلاد
ليباهى ببلاده

» وقد يضحك الانسان من نفسه اذا كان الاستهزاء
لا يناله وحده . . . فلما كان ملوك أوروبا وأمرأؤها
وسواسها وقوادها مجتمعين فى سنة ١٨١٥ فى فيينا وهم
واثقون أنهم احكموا الشبكة على بوناپرت وقد جلسوا

يصلحون ما أفسده ويعيدون ما درسه من معالم أوروبا
— أعلن في المجلس . . . ان الرجل قد أفلت من جزيرة
البا وانه قد عاد ثانية امبراطورا على فرنسا . فوجموا
هنيهة ثم ارتفعت لهم ضحكة طويلة عالية كأنما يقول كل
منهم : ان هذا الكورسيكى لم يعبث بى وحدى ، بل عبث
بنا جميعا »

ويلى هذه الخاطرة عن الضحك خاطرة عن البكاء قلت
فيها ان الانسان « يبكى لغير ما يضحك له : يبكى حين
يظهر به النقص والعجز ظهورا لا سبيل الى المداخلة فيه .
يبكى في المواضع التى يشعر لديها بالقهر التام ويتحقق
له تجرده من الحول والقوة حيالها

« فى تلك المواضع يقول المسلم متمثلا : لا حول ولا قوة
الا بالله . كأنه لا يريد أن يكون ضعيفا الا أمام الله الذى
يتساوى الناس عزيزهم وذليلهم فى الضعف أمام حوله
وطوله . والاطفال المستضعفون أكثر الناس بكاء لانهم أقلهم
اقتدارا . . . على أن عدم البكاء لا يفيد فى أكثر الاحيان
القدرة على دفع المصاب ، فان من أصحاب المظاهر والأبهة
من يترفع عن البكاء ويتكلف الجلد والسكون حتى فى
الفجائع الفادحة كأنهم يأبون الاقرار بالانتقهار على كل حال »

الضحك والبكاء نقيضان

فى هذه الخاطرة حسبت أن الضحك والبكاء نقيضان ،
وأن الانسان يبكى لغير ما يضحك له ، ومدار الضحك
والبكاء معا على الغبطة بالنفس أو نقيضها . فاذا اغتبط
الانسان بنفسه ضحك واذا شعر بالمهانة والنقص بكى

وليست هذه المقابلة بالصحيحة في جميع نواحيها ، اذ نحن لا يضحكنا كل شيء لا يبكينا ، وقد يكون الشيء مضحكا ومبكيا كما يقول أبو الطيب :

وكم ذا بمصر من المضحكا ت ولكنه ضحك كالبكاء
والأصح أن الضحك لغة تعبر عن كثير من الحالات كما قدمنا في الفصل السابق ، وليس من اللازم أن يقابله البكاء في كل حالة ، وقد قال الشاعر بيرون وغيره : « اننى أضحك لكى لا أبكى » . . . كأنما يقولون ان الضحك بدل من البكاء في بعض الاحوال ، ويشبه هذا من بعيد قولنا في تلك الخاطرة أن بعض الناس يتكلفون الجلد والسكون حتى في الفجائع الفادحة كأنهم يابون الاقرار بالانتقهار

ونقول انه شبه بعيد . لأن الذى يضحك «لكى لا يبكى» يضحك حقا ولا يتكلف الجلد . بل يقدر على الضحك لأنه يكشف من أسبابه ما ليس يكشفه غيره ، أو لأنه يوسع النظر الى المسألة ولا يحصرها في أضيق حدودها . فهو ضاحك لأسباب أوسع من الأسباب التى تبكى غيره ، وان لم تتناقض هذه الأسباب وتلك الأسباب

وقد كان آخر ما دونته في خلاصة اليومية عن الضحك كلمة في الصفحة السادسة والثمانين ، فحواها أن قوة الاستحضار في الذهن لها شأن في الشعور بالمضحكات وغيرها . . . « فمن أهل هذا خاطر السريع من تبلغ به قوة الاستحضار أن يستحضر أمرا مضى فيضحك أو يبكى كما لو كان الامر قد وقع له فعلا في ذلك الحين . . . »

وفي ختام هذه الخاطرة أقول ان « الرحمة ليست اذن حيلة اخترعها الضعفاء لمصلحتهم كما افترض النيتشيون ،

ولكنها طبيعة من طبائع الانسان ، والفرق فيها بينه وبين الحيوان فرق بين دماغ ودماغ . فذهن الانسان لارتقاء تركيبه يأخذ الشبيه بالشبيه ، وذلك ما لم يصل اليه الحيوان »

وفحوى هذه الآراء في مجموعها أن الشعور بالمضحكات والمحزنات ملكة انسانية وجدت في الانسان ولم توجد في الحيوانات لانه يدرك المشابهة ويحس بالتعاطف ويستدعى الخواطر من قريب أو بعيد

ملكة السخرية

ولست أحصى تطور هذه الآراء خلال الفترة التي تلت طبع « خلاصة اليومية » سنة ١٩١٢

ولم أقصد خلال هذه الفترة الى كتابة شيء أبسط فيه القول عن أسباب الضحك في عمومهم ، وانما كنت أعود على الموضوع كلما استدعاه التعقيب على مسألة تمت اليه ، كسخرية أبي العلاء والصور الفكاهية في المرأة من تأليف الاستاذ عبد العزيز البشري رحمه الله

فابتدأت القول عن ملكة السخر عند المعري سائلا : « لم يسخر الانسان ؟ »

ثم أجبت قائلا : « انه ينظر الى مواطن الكذب من دعاوى الناس فيبتسم ، وينظر الى لجاجهم في الطمع واعناتهم انفسهم في غير طائل فيبتسم ، وهذا هو العبث . وذاك هو الغرور

» فالعبث والغرور بابان من ابواب السخر ، بل هما جماع ابوابه كافة ، وكل ما أضحك من أعمال الناس فانما

هو لون من ألوان الغرور أو ضرب من ضروب العبث ،
وكثيرا ما يلتقيان . فان الغرور هو تجاوز الانسان قدره
والعبث هو السعى في غير جدوى ، ولا يكون هذا في أكثر
الاحيان الا عن اغترار من المرء بنفسه وتعد منه لطوره
« والناس يعلمون ذلك بالبداهة . فهم يعلمون أن الغرور
والعبث مادة الضحك وجرثومتها التي يتفرع منها كل
مضحك من الاعمال والاقوال ، ويجربون ذلك كل يوم في
مداعباتهم لصغارهم وامتحانهم لقوة أطفالهم ، يقبض الرجل
كفه لابنه الصغير على غير شيء ، فيأخذه بأن يفتحها ويعده
بكل ما يجد فيها اذا هو قوى على فتحها ، فيجاهد الطفل
في ذلك ما يجاهد : يقوم ويقعد ، ويشد ويحتد ، ويلتوى
ويعتدل ، ويرفع اصبعه بعد اصبع ، فاذا الذي رفعه قد
عاد فاطبق مرة أخرى ، ويعييه الجهد فيركن الى الملق
والخدعة ، وهو في كل هذا يحسب نفسه قادرا على أن
يغلب أباه عنوة وقسرا أو يغلبه خديعة ومكرا ، وهذا هو
الغرور

« ثم تلين تلك القبضة فيفتحها فاذا هي خاوية واذا
بذلك العناء الذي أجهد به وبهره قد ذهب سدى ، وهذا
هو العبث ، ومن هذا وذاك تضحكنا الطفولة وتعجبنا
غرارتها وكبرياؤها ونتخذها تسلية ولهوا . ولكن هل
يضحكنا من الكبار شيء غير هذا ؟ وهل مهازل الحياة
ومساخر التمثيل الا صورة مكبرة من هذه اللعبة الصبانية
وسذاجة مركبة من هذه السذاجة البسيطة ؟

« واذا كان هذا معدن السخر وأصل الدعابة فما أجدد
رجلا كصاحب رسالة الغفران أن يكون ساخرا ؟! بل

ما أجدره ألا يكون له عمل في الحياة غير السخر ؟! انه رجل
استخف بالحياة جمعاء ، وهانت عليه الدنيا بما وسعت ،
فما من دعوى من دعاوى الناس تتنزه عن الغرور في اعتقاده ،
وما من غاية من غايات الناس لا تنتهى في تقديره الى عبث
فارغ وخديعة ظاهرة : كلهم مغرور وكلهم عبث وكلهم
متعلق من الأقدار بمثل تلك القبضات التي يعيه أن يفض
أصبعا منها . . . حتى اذا فضها أو خطر في وهمه انه
فضها لم يجد ثم شيئا ، أو وجدها ملأى بما يشبه الفراغ
سخية بما ليس يختلف عن الحرمان . . . وكلهم محتقب
عدة لا تنجع ومتقلد سلاح لا يصيب :

ورب كفى يحمل السيف صارما

الى الحرب والاقدار تلهو وتسخر

لا . بل هبه وصل الى الحرب بسيفه الصارم وقاتل
وظفر وسلم ، فماذا عساه يغم ؟ أعله الثناء على الافواه ؟
أو لعله عرش مملكة ؟ . . ان كان ذاك - وقل أن يكون -
فلعمر أبى العلاء ما قصارى الثناء والسمعة ؟

وما يبالي الميت في لحده بذمه شنيع أو حمده
وما العروش والدول ؟ وما الملوك والاقبال ؟ فلكم غير
على هذه الارض من جيل وزال من مجد أثيل وملك عريض
طويل

وكم نزل القيل عن منبر فعاد الى عنصر في الثرى
وأخرج من ملكه عاريا وخلف مملكة بالعرا
. . . وهل نسينا أن القبر يضحك من تراحم الاضداد ؟
فهكذا تتشابه الامور فاذا الهزل كالجد واذا الحلم كالعيان !

وشبيه صـوت اثنـى اذا قـيـ
س بصـوت البشـير فى كل ناد
لا بل هو كل شـىء ككل شـىء . هو العلم كالجهل والحق
كالباطل والهدى كالضلال
وقد زعموا الافلاك يدركها البلى
فان كان حقا فالنجاسة كالطهر
فعلام اذن يزعم الانسان نفسه ؟ وبأى شـىء يحفل ؟
وما اجتهاده فى التدبير والتقدير وتغير ما كان بما سيكون ؟
الا أننا لنسعد ونشقى عبثا ، ونسعى ونسكن عبثا ، ونرجو
ونقنط عبثا ، ونبكى ونضحك عبثا ، ومن وراء ذلك كله
هاتف يهتف بنا فى غير رفق ولا رحمة :
« تقفون والفلك المحرك دائر
وتقدرون فتضحك الاقدار »

مرد النكتة

كانت كتابة هذا الفصل بعد طبع خلاصة اليومية باحدى
عشرة سنة ، وبعد كتابته بأربع سنوات عقبـت على كتاب
« فى المرأة » للاستاذ البشرى الذى يقول فى مقدمته :
« ان مرد النكتة الى خلل فى القياس المنطقى باهدار
احدى مقدماته او تزيفها او بوصلها بحكم التورية ونحوها
بما لا تتصل به فى حكم المنطق المستقيم . فتخرج النتيجة
على غير ما يؤدى اليه العقل لو استقامت مقدمات القياس
... وهذا الذى يبعث العجب ويشير الضحك والطرب .
فالنكتة بهذا ضرب من احلى ضروب البديع ، ولا يعزب
عنك كذلك ان النكتة اذا لم تكن محكمة التليق متقنة

التزييف بحيث يحتاج في ادراكها الى فطنة ودقة فهم
خرجت باردة مليخة لا طعم لها في مساغ الكلام »

وكان تعقيبى على مقدمة الاستاذ البشرى « انه على
صواب في جزء واحد من اجزاء هذا التعريف وهو الذى
يقول فيه ان الخلل في القياس المنطقى مضحك وان التزييف
والتلفيق داعية من دواعى السخرية . أما الجزء الذى نراه
على غير الصواب فيه فهو قوله ان النكتة هى التى تشتمل
على الخلل او على التلفيق والتزييف . لأن احتمال النكتة
على خلل في القياس يسقطها ويلحقها بالهذر والمجانة ،
والذى نظنه نحن أن النكتة تضحكنا لانها تفضح الخلل
وتهتك الدعوى الملفقة وتطلعنا على سخافة العقول التى
لا يستقيم تفكيرها ولا تطرد حجتها . ومن ثم تكون النكتة
هى المنطق الصحيح وهى الحجة المفحمة وهى البرهان
الذى يرجع بالبراهين في معرض الجدل

» ... وقد يسأل سائل : ولماذا تضحكنا النكتة السريعة
ولا يضحكنا القياس المفصل والفضيحة المبسوطة ؟ فجواب
هذا قد يوجد في تعليل هربرت سبنسر للضحك وهو خير
تعليل وقفنا عليه في كتاب المعاصرين ، ولا نقصد هنا
الا تعليل حركة الضحك الجسدية لا تعليل اسباب الضحك .
فان السبب الذى يذكره برجسون مثلا رجيح صالح
لتفسير كثير من علل المضحكات ، ونعنى رايه الذى يذهب
فيه الى اننا نضحك من كل تصرف في الانسان يشسبه
التصرف الالى الخالى من التفكير ، ونحن مع هذا نقول أن
التماس علة واحدة لجميع الضحك خطأ لا يؤدى الى رأى
صائب ، لان الضحك وان كان اسمه واحدا الا انه ليس

بظاهرة واحدة حتى يكون له سبب واحد
» ونعود الى رأى سبنسر بعد هذا الاستطراد فنقول
ان الضحك عنده ينشأ من تحول الاحساس فجأة من
الاعصاب الى العضلات . فان من المقرر في النفسيات ان
الاحساس اذا اشتد والحف على الاعصاب تجاوزها الى
العضلات فظهر عليها في حركة عنيفة أو رقيقة على حسب
قوته واشتداده ، فاذا حبس الاحساس في طريقه فجأة
تحول بغير ارادتنا من الاعصاب الى أسهل العضلات حركة
واسرعها تأثرا وهى عضلات الوجه والشفيتين ثم عضلات
العنق والرئتين ، فتتحرك بالابتسام أو بالضحك أو
بالقهقهة أو بالوقوف والاختلاج عند من يغلبه الضحك
وتهتز له عضلات الجسم كله . والدليل على ذلك اننا
نضحك اذا غلبنا الاحساس وتحول من العصب الى العضل
ايا كان الموحى به والباعث عليه . فنضحك من الغيظ
والآلم ونضحك الضحكة الهستيرية التى يفرج بها المكروب
عن أعصابه المكظومة كأنما يخفف عنها بنقل شيء من ضغط
الاحساس عليها الى العضلات . . . فالضحك هو الانتقال
فجأة من الاحساس الى الحركة العضلية ، واثنته السريعة
تضحكنا لانها تفاجئ التفكير بحالة غير مرتقبة وتعجله عن
انتظار النتيجة في طريقها المهد المألوف . ومن الامثلة التى
أوردها سبنسر للمضحكات منظر جدى يظهر على المسرح
فجأة بين حبيبين يتناحيان . . . فاحساس النظارة هنا
يمشى في طريق الغزل وينتظر أن يمشى فيه الى نهايته
المناسبة له ويوجه الذهن الى هذه الناحية . ولكنه لا يلبث
أن يلمح الجدى على المسرح حتى يحتبس في موضعه

ويتحول على غير انتظار الى ناحية اخرى ، فيسندفع
الاحساس من الاعصاب الى العضلات وتحدث الحركة التى
نسميها الضحك حين يختلج بها الفم والرئتان . . . وفى كل
نكتة شىء من هذا التحول الذى مثل له سبنسر ينجم عن
المفاجأة بما ليس فى الحسابان ، ويتلخص فى اظهار نتيجة
غير النتيجة التى تبدر الى الذهن لأول نظرة من الشىء
المضحك منه

« فالنكتة الصادقة هى الحجة التى تظهر لنا فساد
الاقيسة المختلفة واضطراب النتيجة التى تأتى فى غير
موضعها وتلتوى على مقدماتها . وهذه هى النكات التى
تفيد النفس لانها تروح عنها وتفيد الذهن لانها ضرب من
المرانة على التفكير السريع وشخذ ثلهم وتقويم له على
المنطق السديد . ولنكتة واحدة يفهمها الطالب حق الفهم
خير من مائة درس فى المنطق يقرؤها ويعيدها وهو لا يحسن
القياس ولا يفقه الدليل

« وكتاب الأوصاف المضحكة يعتمدون فى نكاتهم على
ملكات كثيرة قد يناقض بعضها بعضا وقد لا يجتمع منها
ملكتان لكاتب واحد . فمنهم من يعتمد على ملكة السخر
وهو يحتاج الى الذكاء وادراك الفروق وقد يصحبه شىء
من الجد والمرارة ، ومنهم من يعتمد على الدعابة وهى تحتاج
الى مرح فى الطبيعة مرجعه فى الغالب الى المزاج لا الى ادرس
والتعليم ، ومنهم من يعتمد على الهزل وهو خلق ينشأ عن
جهل بتقدير عظام الأشياء وقد يستحل الضحك فى جلائل
الخطوب ، ومنهم من يعتمد على العطف وهو يرضى الانسان
عن نقائص الناس ويضحكه كما يرضى الوائد الشفيق عن

جهل وليده الصغير ، وخير هذه الملكات وأعلاها ملكة السخر
يمازجها العطف ، وهى عبقرية لا تقل فى اقتدارها على
تجميل الحياة وتثقيف النفوس والاذواق عن عبقرية الفلسفة
وعبقرية الشعر والتلحين .. »



وقد عن لى غير مرة بعد كتابة الفصل المتقدم عن النكتة
(فى سنة ١٩٢٧) أن أتوفر على تصنيف كتاب واف أبسط
فيه منادح البحث عن مصادر الاحساس التى تمتزج
بالفنون والآداب كالأحاساس بالجمال والاحساس بالجلال
والاحساس بالمقدس والاحساس بالمليح Pretty
والاحساس بالمضحك على أنواعه ، ولكننى وجدت الوقت
يضيق عن استيعاب هذا البحث لضخامته وصعوبة مسالكة
وجدته فى اللغة العربية وسائر اللغات ، فجعلت المس هذا
الموضوع متفرقا من حين الى حين ، وكان أهم ما لمسته
فى مسألة الفكاهة توضيح أقسام السخرية من حيث النية،
اذ يكون منها ما يلجأ اليه الساخر كأنه يفتش عن العيوب
الانسانية مستريحا الى وجودها وبقائها ، ويكون منها ما يلجأ
اليه الساخر آسفا مضطرا كالأب الذى يعرف عيوب ولده
ويبالغ فيهما ويفرط فى التأنيب فيقول له انه لا يفلح
ولا يرجى وهو فى الواقع اول من يرجو له الفلاح ويتمنى
لو يكذب ظنه فى تلك العيوب



ووقفت بالبحث حيث وقفت فى الكلام على النكتة ورأى
سبنسر وبرجسون فيها ، وأعنى أننى وقفت بالبحث كتابة
ولم أقف به عناية بالموضوع واطلاعا على آراء خبراءه وذوى

الاختصاص بفنونه ، وكنت كلما توسعت في استيعاب آراء الخبراء وتواريخ هذه البحوث من أوائلها بدا لي أن فهم « المضحك » كما فهمته لأول الامر مقابلا للمبكى أو المحزن بداءة طبيعية لهذه البحوث ، فان الفلاسفة الذين تكلموا عنه قبل أربعة وعشرين قرنا انما تحركوا من هذه النقطة ، فوضعوا التراجيدية أو المأساة مقابلة للكوميديا أو المهزلة ، وضموا الجد والبكاء جميعا في تعريف المأساة كما ضموا الهزل والعبث جميعا في تعريف المهزلة ، وكذلك فعل افلاطون وفعل ارسطو من بعده واقتدى بهما كل من تصدى لتحليل فنون المسرح والشعر عامة مع قواعد الخطابة والبلاغة في جميع هذه الأغراض .

يبدأ فهم المضحكات على هذا النحو الذي تغلب عليه المقابلة الاسمية بين الضحك والبكاء ، ثم يتفرع الضحك ويتشعب وتلوح منه الأفانين التي لا يقابلها البكاء في كل حالة ، بل يدخل فيها ويحسب منها في بعض الحالات

الفيلسوف الباكي والفيلسوف الضاحك

وقبل أن نأخذ في تلخيص آراء افلاطون وارسطو لانتسى من السابقين لهما في تاريخ الفلسفة اليونانية اسمين متناقضين كان كلاهما مادة من مواد الضحك وشاهدا من الشواهد التي يسوقها المعنيون بتعريفاته وتقسيماته ، وهما الفيلسوف هيرقليطس المولود في القرن السادس قبل الميلاد ، والفيلسوف ديمقريطس المولود في القرن الذي يليه

فالأول كان يلقب بالفيلسوف الباكي لأنه كما زعموا كان دائم البكاء لا ترقأ له عين ولا يبتسم له ثغر ، ولا يزال ناعيا

على قومه سوء ماصنعوا وما يصنعون في أمورهم العامة
والخاصة

والثانى كان يلقب بالفيلسوف الضاحك لانه كما زعموا
كان دائم الضحك لا يكف عن الابتسام او القهقهة ولا يكرثه
خطب من الخطوب جل او هان

وقد قال جوفنال الشاعر اللاتينى الساخر أن العجب
لهيرقليطس أعظم من العجب لزميله ، فان دوام الضحك
— صحيحا أو متكلفا — لا يشق على أحد يريده ، وأما العجب
كله فمن ذلك الفيلسوف الذى يجد فى عينيه معينا لا ينضب
من الدموع ويحزن جدا أو يتكلف الحزن تمثيلا ولهاوا حيثما
وجد مع الناس

والقصة كلها « مزدحمة » بشواهد الضحك ومعارض
البحث فى حقائقه واكاذيبه

فمن من الرجلين ياترى ادعى الى الضحك عند الناظرين
اليه ؟ ..

انضحك من دائم البكاء أم نضحك من دائم الابتسام
والقهقهة ؟

يخيل الى الأكثرين أن الرجل الذى لا ينقطع بكأؤه ادعى
الى الضحك من الرجل الذى لا ينقطع ضحكه وابتسامه ،
وانهما — بعد — موضوع صالح جدا للدعابة والسخرية
وأول ما يرد على الذهن من أسباب ذلك أن الضحك الدائم
والبكاء الدائم كلاهما غير معقول

وهنا نذكر ان الانسان حيوان ناطق وحيوان ضاحك ،
وانه استأثر بالنطق وبالضحك ، لانهما مقياسان مشتركان
للعقل وللمعقول ... وهنا نذكر أيضا أن النكتة وسيلة

لاظهار الخلل المنطقى وان كل الفرق بينهما أن النكتة تفاجئنا
بإظهار الخلل وأن الدليل المنطقى يسترسل فى اظهاره بغير
مفاجأة

ثم يرد على الذهن أن الضحك الدائم والبكاء الدائم كلاهما
افراط وخروج من الجد الى ماعداه ، وما عدا الجد يلتقى
بالضحك ولو فى بعض الطريق

وغنى عن القول أن الفيلسوفين لم يكونا على الصفة التى
تفهم من كلمة الفيلسوف الباكي والفيلسوف الضاحك ،
وانهما تعرضا لهذه الزيادة فى الوصف لأنهما مبالغان أراد
الناس أن يكشفوا هذه المبالغة منهما فوصلا بها الى غايتها
المستحيلة ، وصنعا لهما بذلك الوصف صورة هزلية تشبه
الصور التى يعتمد فيها الرسامون الفكاهيون ابراز الملامح
الشاذة بتكبيرها والخروج بها عن جميع مألوفاتها

ولقد كان هيرقليطس يترجم عن سخطه احيانا بحركات
صبيانية ليست من البكاء ولا الحزن فى شىء ، فكان يلعب
مع الأطفال ليسأله الشيوخ فيجيبهم بأن الأطفال أعقل منهم
فى تدبير اللعب ، لأنهم لم يصنعوا فى الاعييبهم ماصنعه الشيوخ
المحنكون فى أحق الأمور بالجد والرصانة

وكان ديمقريطس يسيح فى الأرض من بلاده الى مصر
والحبشة وفارس والهند وكل قطر معمر ، وكانت الدنيا
على أيامه قائمة قاعدة تهون فيها مصائب الأحاد الى جانب
المصائب التى تحيق بالدول والشعوب ، فكان يضحك من
أولئك الذين يستسلمون للأحزان ولا يعتبرون بماحولهم من
عادات الزمن وصروفه حيث ارتحل وحيث أقام ، وقيل من
نوادير جراته بالسخرية أنه اجترا بها على « دارا » جبار

الفرس وهو يسبح في بلاده ، فان هذا الجبار أحزنه أن تموت له جارية يحبها فوعده ديمقريطس بإحيائها بعد دفنها ، وقال له ان الأمر لا يتطلب أكثر من كتابة ثلاثة أسماء على القبر فتعود الجارية الى الحياة ، وسأله « دارا » في لهفة : « وما تكون هذه الأسماء ؟ » فأجابه الفيلسوف وهو يصطنع الجد : « أسماء ثلاثة لم يفقدوا احدا من الاعزاء » ...
وكان هذا هو العزاء ...

ولاريب أن البديهة الانسانية كانت من قبيل الحديد الذى يفل الحديد . فهى التى لقى منها الفيلسوفان جزاءهما من جنس العمل : سخر كلاهما من قومه فأرسله قومه فى التاريخ على ذلك « الكاريكاتور » بين ضاحك دائم الضحك وبك دائم البكاء

وهذا أيضا باب من أبواب المضحكات التى انطوت عليها قصة الفيلسوف : باب الصورة الهزلية أو الكاريكاتور

ثم يجيء الشاعر الساخر جوفنال فيغمض باختياره عن هذه المبالغة لأنها توافق « اتفاقية » كما نقول فى النكتة العربية ، وما كان للشاعر الساخر أن يجد بين يديه هاتين الصورتين ثم يردهما الى سواء الخلقة ليضيع منه المجال الصالح للتهكم على الموصوفين والواصفين

فلسفة الضحك

على أن هذين الفيلسوفين المضحكين قد زودا فلسفة الضحك من سيرتهما ورسمهما بزاد ام تتزوده تلك الفلسفة من عقليين كبيرين كعقلى الفيلسوف افلاطون وتلميذه الفيلسوف أرسطو وهما أعظم فلاسفة اليونان ولم يعرض



جحا الفيلسوف : الرفق بالحيوان ..!

لفلسفة الضحك بعدهما عقل اكبر من عقليهما الى اليوم
وكان خليقا بأفلاطون وأرسطو ان ينفذا الى جوهر الموضوع
في فلسفة الضحك وأسبابه لو انهما قصدا الى الموضوع في
صميمه ، وأرادا ان يستوعبا الفروض والاحتمالات في أسباب
الضحك وأنواع المضحكات ، ولكنهما لم يقصدا هذا المقطع
ولم يتكلما عنه الا عرضا في سياق البحث عن المدينة الفاضلة
والبحث عن الشعر وأقسام الروايات الشعرية

فأفلاطون ذكر المضحكين والمضحكات وهو يبحث عن
مكانهم في مدينته الفاضلة أو جمهوريته المثالية التي أراد ان
يقصرها على الأفاضل والمأمونين وأن يجنبها عوارض النقص
والرذيلة ، فبدأ له أن الشعر موكل بالجانب الضعيف من
الانسان بغير تفرقة بين شعر المأساة وشعر الملهاة

فالانسان الكريم يأبى ان يستسلم للبكاء اذا أصيب في
عزير عليه ولكنه لا يبالي ان يبكى وأن يحزن اذا رأى هذا
المنظر معروضا عليه في رواية فاجعة ، لأن البكاء يخدعه في
هذه الحالة ويوقع في روعه انه يبكى لغير مصابه ويفلب على
نفسه في سبيل غيره

والانسان الكريم يأبى ان يفوه بالاضاحيك أو الخبائث
المضحكة ولكنه يستسلم للضحك اذا سمعها محكية في رواية
هزلية يمثلها المرحيون أمامه

وليس بالحسن على كل حال ان يكون في الجمهورية الفاضلة
انسان يغلب على وقاره ضحكا أو بكاء بله الاناسى الذين
يصورون الارباب في عليين مغلوبين على هذه الصورة ، ويقول
أفلاطون أن الانسان الكريم لا يعرف الجد الا بالهزل وأنه من
الحسن ان يشهد مناظر الهزل من العبيد والأجراء المسخرين

ولا ينغمس فيها بنفسه . وقد اثنى على المصريين لانهم يعلمون الأبناء الموسيقى والرقص قياما بالشعائر الهيكلية ولكنهم لا يسمحون للشعراء بخلط الألحان بالأغاني المبتذلة والقصائد الموزونة على رقص الخلاعة والمجون ، وقد كانت خلاصة رأيه في كتاب الجمهورية وكتاب القوانين أن الشعراء يحسنون صناعة الشعر ويستحقون من أجل ذلك أكاليل الفار ولكنهم يلبسونها ويخرجون من المدينة الفاضلة الى حيث يشاءون

وام يذكر أفلاطون سبب الضحك الا في كلمات قليلة خلال هذه المباحث الاخلاقية ، وهو يرى في تلك الكلمات ان الضحك مرتبط بالجهل الذي لا يبلغ مبلغ الايذاء ، وأن الشعراء يضحكوننا حين يحاكون أولئك الجهلاء ، ولكنهم اذا طرخوا موضوع الملحمة أو المأساة عظموا الطغيان وجعلوا رواياتهم حكاية لأعمالهم ، فلا أمان لهم في محاكاة الجهل ولا في محاكاة الطغيان

وأرسطو أدق من أستاذه في تعبيراته عن أقسام الشعر لانه وضع فيها مبحثا خاصا تتبع فيه المسرحيات المضحكة من أصولها منذ كانت ضربا من الهجاء والأغاني الشهوانية الى ان أصبحت موضوعا للاضحاك والتسلية ، ولهذا جاءت في الترجمات العربية باسم الأهاجي والتهريجات ولم يبتدعوا لها اسما يقابل اسم « الكوميديا » كما صنعنا في العصر الحديث اذ سماها بعضهم بالمهزلة وبعضهم بالملهاة وعربها بعضهم بلفظها اليوناني فسماها الكوميديا

وعند أرسطو أن المضحك ضرب من الدميم أو المشوه لا يبلغ درجة الايلام أو الايذاء ، وفي نبذة منسوبة اليه من

رسالة مقطوعته طبعها كيبل Kaibel في براين سنة ١٨٩٩ يقول ان الملهاة تطهر النفس كما تطهرها المأساة ؛ لان النفس المطبوعة على الرحمة أو على حسن الذوق تجد في المأساة والملهاة منصرفا لما تنطوى عليه من العطف والشوق الى الكمال واجتناب التشويه

وكلا الفيلسوفين قد تطرق اليه الخطأ من فهم المأساة والملهاة على أنها نوع من التقليد والمحاكاة ، لأن الشعر المسرحي يعرض الفواجع بتمثيل اناس يحاكون المصابين بها في حركاتهم وأقوالهم ، وكذلك يفعل بالمضحكات والملهيات وأفلاطون من أجل هذا ينزل بالمقلدين الى الدرجة الثالثة، فيقول ان الصورة الفضلى هي صنعة الله ثم يحكيها الصانع الخبير بالصناعة ، ثم يأتي الشاعر فيحكي عمل هذا الصانع حكاية بعد حكاية

ولم يلتفت أرسطو الى منزلة الشعراء المقلدين الا في سياق كلامه عن الاخلاق والاستطراد منه الى اخلاق الهجائين أو الدمامين ، فلم يكن من همه ان ينشئ مدينة فاضلة يبيع المقام فيها لانس ويحرمه على آخرين وليس في هذا الخطأ عيب على عقل الفيلسوفين الكبارين ، لانهما بادئان في طريق لم يسبقهما اليها سابق من الخبراء أو غير الخبراء ، ولكن العجيب منهما حقا أن يحسبا الفن تقليدا أو محاكاة ولا يحسباه خلقا وابتداعا من الشاعر على التخصيص ، مع أن كلمة الشاعر تفيد معنى الصانع أو الخالق باللغة اليونانية

ونقول ان هذا عجيب من الفيلسوفين حقا لانهما كانا يستطيعان ان يعلما أن وصف كرسى في الشعر أصعب من

عمل كرسى بصناعة النجارة ، وأن النجار الذى يعمل ألف كرسى لا يستطيع أن ينظم بيتا واحدا من القصيدة التى تنظم فى وصف أحد كراسيه ، وهكذا يستطيع الرسام أن يصور كوبا من الفخار ولا يستطيع الفخارى الذى يصنع الآنية الفخارية جميعا أن يخرج صورة لكوب صغير منها

وقد زاغ هذا الفهم الخاطيء بالفيلسوفين عن أسباب الضحك فى تفصيلاتها ، لأنهما التفتا الى فكرة التقليد فجعلها أحدهما اسفافا دون صناعة الصانع ، وجعلها الآخر طلبا للمعرفة يكاد أن يتساوى فيه المقلد ، ومن يشهد التقليد ويسر بالنظر اليه ، ولم ينظر كلاهما بعين الشاعر لينفذ الى مواطن الضحك فيهما يتحراه من الصور المضحكة ومن تنويع عرضها وتمثيلها

لكنهما على هذا الخطأ الذى لاينجو منه كل مبتدىء قد نجحا فى التعريف بسبب الضحك نجاحا غير قليل ، لأنه كان أساسا لما بناه التابعون كما كان أساسا لنقد الناقدين

فالقول بأننا نضحك من العمل لأنه ينم على جهل لم يبلغ درجة الإيذاء والإيلام ، أو أننا نضحك من العمل لأنه يعرض لنا تشويها لم يبلغ هذه الدرجة — كلاهما قول يؤخذ به للمناقشة والتعقيب ولا يرفض كله جملة واحدة فى تعريف من تعريفات المحدثين

وكل مانعترض به على التعريفين أن الإنسان قد يتبلد شعوره عن الألم والضحك فى وقت واحد ، فليس كل إنسان يرى التشويه ولا يؤلمه يضحك منه ، لأنه قد يكون بليدا يخفى عليه التشويه والألم فى آن

وانما الخلو من الألم شرط لكل استمتاع بشيء من

الاشياء حتى ماكان من قبيل المتعة المادية ، اذ كان الالم على الأقل صارفا للشعور عن سبيل المتعة ، ان لم يكن مناقضا للشئ المضحك او للشئ الجميل او للشئ الجليل ونضرب المثل لذلك بانسان مشوه ينظر اليه صاحب الاحساس المرهف فيدرك مايعانيه ، وينظر اليه الطفل الفر او الرجل الجلف فيهزا به او يولع به للضحك منه واضحاك الناس عليه

فلا يجوز ان تفهم من ذلك ان الرجل الحساس غير صالح للضحك وغير خبير بالمضحكات ، لانه قد يحس منها مايجعله الأطفال الاغرار والرجال الاجلاف . بل يجوز ان نقول ان الطفل الفر والرجل الجلف لايعرفان مايضحك ولا يعرفان مايؤلم في وقت واحد



وندر من فلاسفة القرون الوسطى من نظر الى الضحك نظرة جدية وراه في حكمة جديرا بالبحث عنه وعن اسبابه، لانصرافهم الى البحث في الاصول الدينية واسرار ماوراء الطبيعة ، ولعل فلاسفة اليونان الاقدمين كانوا على هذا الرأي ولم يبحثوا بعض البحث في الضحك واسبابه الا في طريق بحثهم عن التراجيدية والكوميديا مع رجوع هذه في اساسها الى سير الارباب وشعائر الدين ومحافل الاعياد

الرثنية

الا اننا قد نعثر بين الآونة والاخرى على فيلسوف من فلاسفة القرون الوسطى بحث في معنى الضحك لاتصاله من بعض أطرافه بمباحثه الاخلاقية او اللاهوتية ، واحق هؤلاء بالالتفات الى رآه ف. هذا المبحث يوسف البو Joseph Alb

(١٣٨٠ - ١٤٤٥) ، وتوماس هوبز Thomas Hobbes
(١٥٨٨ - ١٦٧٩)

فيوسف ابو فيلسوف اسرائيلى ممن درسوا فلسفة
الاندلس الاسلامية واقتبس منها فى كتابه عن المبادئ
والاصول ، وتكلم عن الضحك لانه مذكور فى كتب التوراة
ومنسوب الى الانبياء ومنهم ابراهيم الخليل

قال : « الضحك - وبالعبرية سحوق - كلمة مرادفة
لكلمات فى معناها ، تدل على الفرح كما جاء عن ابراهيم انه
خر على وجهه وضحك ، ومعنى ذلك انه كان فرحا بما سمع
» وقد يدل الضحك على السخرية والاستهزاء كما يقول
القائل : اننى ضحكة للجار ، وربما امتزج معنى الضحك
والسخرية كما جاء ان الذى يستوى على السماء - الله -
يهزأ بهم . اذ كان الضحك احيانا دليلا على الشعور باحتقار
من يستحق الاحتقار ، وهكذا يشعر من يلحظ نقصا فى كلام
احد او عمله ويشعر بتفوقه عليه لانه لا يقع فى مثل ذلك
النقص ، فانما يتولاه الضحك لانه يرى الآخر يقول او يعمل
ما لا يجمل بالانسان ووقاره

« وعلى هذا النحو ينسب الضحك الى الله فى التعبير
المتقدم ، وسببه انه يسمع القائلين يقولون : هلموا نمزق
شملمهم ، وهى كلمات لايجمل بالبشر ان ينبسوا بها ، على
حد قول الربانيين ان سبب المشابهة بين نشيد ايسالوم
واخبار ياجوج وماجوج انه لو سأل سائل : هل من الممكن
ان يتمرّد العبد على مولاه ؟ لكان الجواب : وهل من الممكن
ان يتمرّد الولد على ابيه ؟ . وقد حدث هذا فمن الممكن
اذن ان يحدث ذاك

« وواضح من ثم أن ذلك المقال مما لا يحسن بانسان ان يقوله والا كان أهلا للازدراء والسخرية . وبهذا المعنى ينسب الضحك الى الاله والى الانسان

« ويضحك الانسان أحيانا اذ يخدع غيره في أمر كان ينبغي أن يحذره المخدوع وينتبه اليه . ومن ثم يرجع سبب الضحك في جميع الحالات الى الشعور بالتفوق في نفس الضاحك حين يرى غيره يقع في حماقة وأمر ينبغيء عن جهالة . ويقول العلماء أن الضحك خاصة انسانية كما يقولون ان أسبابه مجهولة ، ويعنون بذلك اننا لانعلم لماذا يكون الضحك مصحوبا بحركات جسدية معينة ولماذا يحدث الضحك عند لمس الابط أو بعض المواضع الحساسة من الجسد . على أن حدوث الضحك من السخرية معروف جد المعرفة كما بينا في شرح الآية . . . »

وظل هذا الرأي مأخوذا به في تفسير الضحك الى أوائل العصور الحديثة ، وهو على التقريب رأى الفيلسوف الانجليزى توماس هوبز الذى يرجع بكل خليقة أو عاطفة ترضى الانسان الى شعوره بالقوة والامتياز والرجحان ، ويرى ان الاخلاق الانسانية المحمودة تدل جميعها على القوة في صورة من صورها . فالكرم والشجاعة والصبر والعزة والفضائل جميعها لاتنال حمد الانسان مالم تكن مقرونة بالقدرة والدلالة عليها ، وتتساوى الاخلاق النبيلة والعواطف الرفيعة في هذه الخصلة ، بل تتساوى فيها الاعمال الارادية وغير الارادية كالضحك في صورته العقلية وصورته الجسدية . فانما يضحك الضاحك لانه يحس من نفسه انتصارا مفاجئا

أو مزية مفاجئة ، ولابد من شعور النصر أو الامتياز فيما
يضحك الانسان ويرضيه



وهذا هو الرأى الذى توافقت عليه اقوال المتكلمين عن
الضحك من عصر الفلسفة اليونانية الى العصر الحديث ،
ولا حاجة الى انتظار التعقيب الأخير على جملة الآراء لظهور
الخطأ فى هذا التعليل الذى يصح فى جانب واحد من المضحكات
ولا يصح فى جميع جوانبها . فان الانسان قد يضحك احيانا
حين يشعر أنه قد انخدع كما يضحك من غفلة غيره حين
تجوز عليه الخديعة البينة ، وليس فى هذا دليل على الشعور
برجحانه بل هو دليل على شعوره برجحان غيره عليه
والمثل القريب على ذلك ما تقدم عن الضحك « الاجتماعى »
فى مؤتمر الساسة الذين جلسوا لتضييق الخناق على نابليون
ثم جاءهم الخبر فجأة بانطلاقه من جزيرة البا وعودته الى
فرنسا . فهذا موقف مفلوطين لاموقف غالبين ، ولا يستقيم
تفسيره بشعور الرجحان أو الانتصار من جانب الضاحكين
وكل ما ثبت فى جميع الحالات ان هناك مفاجأة وأن المفاجأة
تخالف الحالة المطردة أو الاتجاه الذى يجرى فيه الشعور ،
وبهذا يسهل تفسير الضحك ممن جلسوا ينظمون القارة
الاوربية بعد اعتقال نابليون كأنما هذا الاعتقال امر مفروغ
منه ، ثم تقع المفاجأة بما يخالف الحسابان

افراط المحدثين

واذا كانت الشكوى من الثقافة القديمة قلة البحث فى
الضحك وأسبابه فقد يكون الافراط فى هذا البحث شكوى

القارىء من الثقافة الحديثة ، لانها توشك ان تتطلب منه تخصصا ثقافيا مقصورا عليها ، وقد أثبت برجسون نحو أربعين مرجعا من الكتب والأصول ألم بها في رسالته عن الضحك ، ويمكن أن يزداد عليها ثلاثة أضعافها من المراجع المتفرقة عن فلسفة المضحكات عامة أو عن موضوعات الفكاهة والنكتة في مزاج هذه الأمة أو تلك أو في آدابها ومأثوراتها ويعود هذا الإفراط في الكتابة عن الضحك الى باعثين جديدين في العصور الحديثة : أحدهما نشأة علم الذوق أو علم الجمال الذى ينظر في الفروق بين الجميل والجليل والمضحك كما تعرضها الفنون الجميلة ولاسيما التمثيل ، وكأنما كان اهتمام المحدثين بالتمثيل ورواياته وأدواره تجديد الاهتمام أفلاطون وأرسطو بالتراجيدية والكوميديّة وملكات الشعراء الذين يكتبون في المحزنات والمضحكات والملاحم الكبرى عن الأرباب والعبادات وما استطردت اليه من موضوعات لاعلاقة لها بالدين وقد تناقضه وتخالف الأدب الواجب للمعبودات وشعائر العبادة . فان عودة الأدب المسرحى في العصور الحديثة كانت فاتحة البحوث الفنية والفلسفية في الموضوع من جميع جوانبه واطرافه ، فكان البحث فيه عن المضحك والمبكى والحسن والقبيح مقرونا بالبحث عن المقدس والقداسة في شعور الانسان وفي الكائنات التى يقدسها ويرتفع اليها بالاجلال والابتهال ، واستدعى تمثيل هذه الكائنات شعرا ونحنا وتصويرا أن توضع لها الحدود والتعريفات وتقام الفواصل بينها وبين ما يلتبس بها من التشابهات أو المتناقضات

هذا أحد الباعثين الجديدين الى افراط المحدثين في الكلام

على الضحك وتعليل أسبابه وتطبيقه على الفنون المتجددة في
الزمن الحديث

أما الباحث الآخر فهو شيوع البحث في التطور ومذهب
النشوء . . . فان هذا المذهب يفسر تعبيرات الانسان عن
خواجه وعواطفه بما يوافق طبيعته الحيوانية ، ويتقصى
وجوه الشبه ووجوه الاختلاف بينه وبين سائر الاحياء في
هذه التعبيرات ، ويراقب ملامحه ليربط بينها وبين وظائفه
الجسدية واستعداد هذه الوظائف لتلبية العوامل الداخلية
والعوامل الخارجية

ولا يسع الانسان الا أن يتسم لتناقض النتائج التي وصل
اليها اقطاب هذا المذهب بعد بحثهم في ظاهرة الضحك
والفكاهة . فان العالمين العظمين اللذين توافيا - بغير التقاء
بينهما - الى تحقيق ظواهره وشواهد قد ذهبا الى الطرفين
المتقابلين في تعليل الضحك والفكاهة

فمن رأى ألفرد رسل ولاس Alfred Russel Wallace

أن الضحك وسائر الخصائص الانسانية التي ينفرد بها النوع
الانسانى لا تقبل التفسير بالانتخاب الطبيعى وتطور أنواع
الحيوان ، وهو يتساءل كيف يفسر لنا الانتخاب الطبيعى
ملكات الرياضة والموسيقى والاحساس بما فوق الطبيعة ؟
ويعود فيقول ان ملكة الفكاهة من هذا الطراز بين الخصائص
الانسانية ، لانها تحتاج جميعا الى تفسير غير تفسير الصراع
على الحياة وتنازع البقاء ، ولو كانت من هذه الأسلحة في
النوع الانسانى لما كان مفهوما كيف يتجرد منها معظم الناس
ولا تتوفر لغير العدد القليل منهم فى أرقى الحضارات ،
ولا كان مفهوما كيف يتجرد منها الهمج والاولائل الفطريون

كما يتجرد منها الأكثرون بين المتحضرين ، فهي كما قال في تطبيقه المذهب الداروينى على الانسان أخلق بأن تفسر بالمنحة الالهية التى يختص بها الخالق بعض الطبائع الموهوبة ، ولن تقبل التفسير بغير ذلك ولو باعتساف شديد

ومن رأى داروين أن الضحك قد يوجد بمعزل عن التفكير كما يلاحظ على البلهاء وصغار الأطفال الذين يضحكون ليعبروا عن حالة الرضى والارتياح ولا يصحبون ذلك بفكرة أو خاطرة ذهنية ، والأصحاء من الراشدين تعتر بهم حالات الضحك لأسباب غير أسبابه فى الطفولة ، ويصدق هذا على الضحك ولكنه لا يصدق على الابتسام ، وكأنما يعبرون بالضحك عن حالة مقابلة لحالة البكاء الذى يقترن بالشدة والكآبة العقلية كما يقترن بالخوف والغضب ، ولعل شيئاً من الغرابة المفاجئة مع شئ من الشعور بالتفوق هو أشيع الأسباب لضحك الكبار الراشدين . ومن الواجب ألا تكون الظروف على جانب عظيم من الخطر والجسامة ، فإن الرجل الفقير - مثلاً - لا ينتظر منه أن يضحك إذا سمع فجأة أنه كسب مقداراً كبيراً من المال ، ولكن العقل إذا هاجه الشعور بالمسرة وطرأت عليه خاطرة صغيرة غير متوقعة فالنشاط العصبى يفرج عن نفسه بتحريك العضلات تلك الحركة التشنجية الخفيفة التى نسميها الضحك

قال فى كتابه عن تعبيرات العواطف فى الانسان ان الجنود الألمان اثناء حصار باريس كانوا يندفعون الى الضحك لكل تفاهة من تفاهات النكتة بعد طول التعرض للخطر الشديد ، ويقول مستر هنتون من سان فرنسيسكو انه كان يتناوبه الصياح والضحك وهو على التلال عند الباب الذهبى معرض

لأفدح الأخطار ، وهكذا يشاهد على الاطفال الصغار وهم يهمون بالبكاء أن بكاءهم يتحول الى ضحك حين يطرا امامهم طارئ غير متوقع ، مما يفهم منه أن الضحك يفيدهم في تصريف فيض الجهد العصبى الذى يحسونه على تلك الحال وينظر داروين الى أسلوب المجاز حيث يقول القائل ان الخيال دغدغته فكرة مضحكة فيلاحظ أن دغدغة الخيال مماثلة لدغدغة الجسد ويتخذ المثل من ضحك الاطفال و « تشنج » أجسامهم الصغيرة بفعل الدغدغة ثم يلاحظ أن القردة العليا تبدر منها أصوات مرردة في مثل هذه الحالة ، ويعود فيفرق بين الضحك من فكرة مازحة والضحك من أثر الدغدغة الا فى أمر واحد وهو أن يكون الفكر فى حالة راضية ، فكما ان الطفل يصيح ولا يضحك اذا دغدغه رجل غريب واشتدت عليه حركة الدغدغة كذلك ينبغى ان يكون الفكر بعيدا من الجفوة والشعور بالاكتراث والاهتمام ، وتحدث الدغدغة الجسدية فى المواضع التى لاتعرض كثيرا للمس ولا يكون موضع الدغدغة معروفا قبلها ، وكذلك تحدث الدغدغة الفكرية من خاطر غير معهود ولا معروف قبل ذلك ، ويبدو ان عنصر الطروء أو المنافرة الذى يجرى فى سياق التفكير هو العنصر القوى فى تكوين المضحكات

ثم يراقب داروين عوارض الضحك على الوجه والجسم ويحصيها احصاء دقيقا فى تتابعها على حسب الرخاوة أو العنف فى الشعور ، ويقرر أن الشعور العنيف كله يتخذ تعبيرا واحدا فى حالتى الحزن والسرور وأن مشاهدة ذلك ميسورة لمن يراقب العصابين (الهستيريين) والاطفال لسرعة تأثرهم بأنواع الاحساس ، فانهم يتراوحن بين الضحك والبكاء

في الوقت الواحد وينتقلون من الشعور الى تقيضه لانهما عندهم متقاربان . وشأن القبائل الفطرية عند داروين كشأن الاطفال في هذه الخصلة ، لانه رأى في جزر ملقة نساء يبكين اذا أغربن في الضحك ، وروى أقوال السائحين عن سكان استراليا الاصلاء فقال انهم يقفزون ويصفقون وتغرورق أعينهم بالدموع وهم مرحون ضاحكون ، ثم قال ان الاستراليين والأوربيين يتشابهون في ضحكهم جميعا من رؤية المحاكاة . ومن القبائل الفطرية في جزيرة سيلان أناس لا يضحكون لمنظر قط من المناظر المضحكة - فيما رواه هارتشورن Hartshorne - لانهم يقولون اذا سألوا مستغربين : وما الذي يدعو الى الضحك في هذا أو ذاك ؟ . الا ان الابتسام والضحك في جميع الأمم يجريان في مسلك واحد فلا استطاع وضع الحد الحاسم في الحركات أو المعاني بين دواعي الضحك ودواعي الابتسام

وظاهر من دراسة داروين كلها للتعبيرات الانسانية والحيوانية انه يتجه بمراقبته الى العوارض الجسدية التي تعم جميع بنى الانسان وقد تعم بعض الحيوان في بعض الأحوال ، والعوارض الجسدية ادق لديه من العوارض الأخرى التي لايسهل ضبطها وتعميمها ولا يسهل كذلك تعليلها بالانفعالات المشتركة بين الناس من جانب وبين الناس والأحياء العليا من الجانب الآخر ، وهو على خلاف زميله في مذهب النشوء والتطور - الفرد ولاس - موكل بالتعميم والاشباه الشائعة دون تلك الملكة الخصوصية التي يرى صاحبه انها مزية محدودة لايفسرها تنازع البقاء كأنها ملكة الادراك الرياضى والبداهة الموسيقية وما إليها . فبينما

يهبط داروين الى عوارض الضحك التى يقل فيها التفكير كضحك الأطفال والعصابيين والقبائل الفطرية - يرتفع ولاس الى ملكة الفكاهة العالية التى يمتاز بها آحاد من النوابغ قلما يزيد عددهم على عدد العباقرة الذين يكشفون خفايا الحقائق الرياضية ودقائق النسب الموسيقية ، ويعلمون الناس كيف يفهمونها ويدركونها بعقولهم وبصائرهم فلا يتيسر للكثيرين أن يجاروهم على فهمها وادراكها

والنزعة الوجدانية هى سر الاختلاف فى النظرة الى المضحكات بين العالمين الكبيرين . فداروين يبحث عن وحدة الأنواع الحيوانية فيهبط الى مواطن الشبه بين أرقى الأحياء وأقل الناس ويعقد الصلة بين هؤلاء وهؤلاء بوحدة العوارض الجسدية التى تصاحب الضحك من تأثير الدغدغة أو تأثير المشاهدات الحسية ، ويعنيه أن يراقب عوارض الدغدغة فى القرود التى تتأثر بعض المواضع فى أجسامها باللمس المفاجئ على غير المؤلف

وكل هذا لا يفسر الملكة التى يعنىها زميله ولاس ويعلو بها الى الطبقة التى ينفرد بها الأدميون بل ينفرد بها آحاد من الأدميين ، لأن نزعته الوجدانية تتجه الى الإيمان بأرواح الالهى ومزاياه التى يفيضها على الأرواح الانسانية كلما تهيات لها بهداية السماء

ولم يزعم داروين انه فسر الضحك كله واستوعب الكلام فى أسرار المضحكات على اختلافها ، وإنما أراد منها ما تثبتته التعبيرات المحسوسة وتطرد فيه الملاحظة اطرادا يقبل التعميم

ويقال هذا أيضا عن الفلاسفة الذين درسوا الضحك من

ناحية علم الذوق أو علم الجمال . فانهم تناولوه من وجهة
المقابلة بينه وبين الأحاسيس الجميلة أو الجليلة أو المقدسة
ولم يستوعبوا أصوله وتفريعاته في دراسة مستقلة تحيط
به في معانيه الفنية ومعانيه الحيوية

فخلاصة رأى كانت Kant ان الضحك ينشأ من التوقع
الذى ينتهى فجأة الى غير طائل ، وخلاصة رأى شوبنهاور
ان الضحك فى جميع الأحوال نتيجة المفاجأة بادراك عدم
التناسب بين الشئ المضحك والشئ الذى يخطر على البال
انه يشبهه ، وخلاصة آراء الباحثين فى الجميل والجليل عامة
ان المضحك هو النزول بالجليل - أو الوقور - فجأة الى
الابتذال والاسفاف ، وأنه فى جملة نوع من الحطة
Degradation يسرع الذهن فى الالتفات اليه

وليس من اليسير أن نستقصى هنا كل ما قيل فى تعريفات
الضحك وأسبابه ، فان الجمع الذى يدل على طائفة قليلة من
نماذج التفكير أجدى من احصاء التفصيلات التى تتبعثر بغير
رابطة بينها تدور على محور معلوم

ونرى اننا قد نستغنى عن تتبع الآراء المبعثرة فى تحليل
الضحك اذا اجتزأنا منها بتلخيص ثلاثة آراء نموذجية هى
رأى سبنسر العالم الانجليزى وبرجسون الفيلسوف الفرنسى
وفرويد الطبيب النمساوى صاحب مذهب النفسانيات
الحديث

فرأى سبنسر رأى عالم نشوئى يفصل رأى داروين
وينقحه ويزيد عليه من الوجهة العلمية الطبيعية

وبرجسون فيلسوف ينظر الى الوجهة الاجتماعية ولا

يهمل الوجهة الفنية ، وان كان يوجزها ولا يستقصيها
وفرويد ينظر الى الدخائل النفسية مع ارتباطها بالمجتمع
وعلامات الصحة والمرض في الأحاد
وقل أن يوجد رأى في الضحك لا يلتقى بهذه الآراء في جزء
من الأجزاء



ثلاثة آراء في الضحك

كتب سبنسر رأيه بعنوان فزيولوجية الضحك :

The Physiology of Laughter

وهو عنوان يدل على مدار البحث كله ، ويؤخذ منه أن الباحث إنما أراد أن يفسر عوارض الضحك الجسدية وارتباطه بالأفكار والأحاسيس التي تستدعيها

وفكرته تشابه فكرة داروين في أساسها ، ولكنه يخاف القائلين بأن الضحك محاولة عضلية للتخلص من شعور مكرب أو غير محتمل ، ويخالف القائلين بأن الضحك يتولد من الشعور المفاجيء بالغبطة والرضى عن النفس بما يوحى إليها من السلامة أو الرجحان

ويقول سبنسر أن هذا كله قد يحدث ولا يحدث معه الضحك ، وأنه لابد لتمام العوارض جميعا من التحول المفاجيء من سياق الى سياق في وجهة الشعور

يشتغل الموسيقى بتوقيع قطعة من الحان موسيقى بيتهوفن مثلا فيعطس أحد الحاضرين عطسة قوية يسمعها الحاضرون خلال التوقيع ، فيضحكون

ليس في الاستماع الى الموسيقى شعور مكرب تتخلص منه النفس بالضحك ، ولكن الذي حدث أن العطسة غيرت مجرى الشعور أو حبسته عن المضى في طريقه المألوف ، فتنقله هذه المفاجأة من اعصاب الحس الى العضلات ، ويحدث الضحك من جراء هذا الانتقال

ويقف العاشقان على المسرح يتناحيان ويتغاضبان أو

يتراضيان ، واذا بجدى يضل طريقه ويذهب الى العاشقين فيقطع عليهما وعلى النظارة هذه المناجاة ، فيحدث من هذه المفاجأة ما أحدثته العطسة القوية أثناء سماع الموسيقى ، ويضحك النظارة الذين كانوا يرقبون منظر المناجاة ولم يكن فيه مايكربهم او يحبون التخلص منه بالضحك ، وانما يغلبهم الضحك لانتقال الشعور من وجهته المطردة ، ولا بد له اذن أن ينتقل من أعصاب الحس الى العضلات

يقول سبنسر : ولا يحدث هذا لجميع السامعين اذا كان فيهم من يستفرقه الشعور بالموقف ولا يدع فيه بقية للانتقال منه والالتفات الى غيره . فان هؤلاء قد يغفلون عنه او يغضبون لتنبيههم من الشعور الذى هم مستغرقون فيه ويقول سبنسر ان المؤثرات لها فى الانسان ثلاثة منافذ : منفذ الحس ، ومنفذ الفكر ، ومنفذ الحركة العضلية ، وانها كلها قابلة للتحويل من منفذ الى منفذ سواء بدأت بالتفكير أو بدأت بالحس أو بدأت بحركة من العضلات

فالرجل الذى يهرب من الخطر اذاهم يجرى وتشتغل عضلاته بهذه الحركة ، ولكن هذه الحركة العضلية لا تستفرقه ولا تمنعه أن يفكر فى الخطر والحيلة التى يحتالها أو العمل الذى يعمل له للنجاة منه

فاذا كان الخوف أهون من الخوف على الحياة فربما انصرف بالحركة وأصبحت الحركة ضربا من الرياضة التى يتشاغل بها الانسان عن حالته النفسية

والطفل يصفق اذا فرح لأن شعوره ينتقل من الأعصاب الى العضلات ، وربما فرك الرجل الكبير كفيه فى مثل هذه

الحالة ، لأنه تعود هذا الشعور أو تعود أن يتحول عنده الى
الفكر كما يتحول الى العضلات

ومما يدل في رأى سبنسر على أن الضحك من حركات
رد الفعل أو من الحركات الانعكاسية انها حركات لغير قصد
أو حركات غير مقصودة بإرادة صاحبها ، كأنها غمضة العين
للوفاة أو رعشة البرد التي لا يريد بها المقرور

ويتبسط سبنسر في وصف تأثير هذه الانفعالات غير
الارادية فيرى أن تأثير الشعور قد يعطل تفكير الخطيب على
الرغم منه وهو واقف امام الجماهير يحس وجودها ويخشى
أن يتلعثم امامها أو لا ينال موافقتها واعجابها ، ولو أنه وقف
ليلقى خطابه امام الكراسى الخالية لانطلق تفكيره بغير عائق
من الحس والشعور . وهاهنا ثلاثة عوامل مشتركة في
التأثير على الخطيب : عامل الحس اذ يرى الجماهير ، وعامل
الشعور اذ يخشى التقصير والخيبة ، وعامل الفكر الذي
يشغل الحس والشعور جانبا منه فلا ينطلق مع اشتراكها
كما ينطلق على انفراد

فالسريان بين منافذ الحس والتفكير والحركة طبيعي في
المؤثرات النفسية ، وكلها تجري في مجراها الطبيعي من
الفكرة الى الحس والحركة ، أو من الحس الى الحركة والفكر ،
أو من الحركة الى الاحاسيس والافكار

غير أن الحس أو الفكر لا ينتقل الى العضل الا في غياب
الحس والفكرة التي من قبيله ، فاذا كان الالم شديدا جدا
يستوعب الشعور كله فهو لا ينتقل الى العضلات عند المفاجأة ،
لأنه يجد طريقه في اتجاه الشعور بغير عائق يطلده عن مجراه
ويستطيع من شاء أن يحقق ذلك بمنظر يذكره او يتخيله

على وفاق المؤلف من تجاربه ومشاهداته :
إذا جلس الناس في مأتم وحدثت على مشهد منهم مفاجأة
مضحكة فقد يضحك الغرباء عن المأتم وقد يضحك الصغار
الحاضرون وان كانوا من أهل الميت ، ولكن الكبار المفجوعين
لا يضحكون لأن شعورهم يفيض في مجراه ولا تشغله المفاجأة
المضحكة حتى تنتقل من الحس الى حركة العضلات ، وربما
أثارهم وأغضبهم ان يروا أمامهم أحدا يضحك وهم مفلوبون
بالأسى والفجيعة

وملاحظة سبنسر — هذه — مهمة جدا في تصحيح
التعريفات الاخرى ، ومنها تعريف أفلاطون وأرسطو وغيرهم
للضحك اذ يقولون أنه نتيجة الشعور بالسخف أو التشويه
الذي لم يبلغ مبلغ الايلام والايذاء

فالآلم مانع للضحك لأنه يشغل الشعور بغير المضحكات
ومتى اشتغل الشعور بشيء آخر لم يشعر الانسان بالجمال
ولا باللذة ولا بالسرور ، وليس الأمر هنا خاصا بالمضحكات
دون المحاسن واللذات والمسرات

ان المفاجأة التي تعوق الاحساس عن مجراه وتحوله الى
العضلات كافية وحدها للضحك ولا حاجة معها الى استثناء
الآلم ، لأن الآلم استثناء لكل شعور وليس بالاستثناء
للمضحكات دون سواها

أما اذا كان الاحساس من القوة بحيث لاتعوقه المفاجأة
فانه يجتريها في طريقه ولا يتحول الى العضلات ، ولا يحدث
الضحك من ثم على الرغم من جميع المفاجآت

واذا قال قائل عن جدول الماء انه يجري ما لم يعقه عائق ،
فهو لا يقول لنا شيئا عن طبيعة الماء دون غيره . فهكذا

يحدث لكل متحرك انه لا يتحرك مع وجود العائق في طريقه سواء في ذلك حركة الماء وحركة البخار وحركة السهم وحركة القذيفة من أقوى المدافع والراميـات وكذلك يكون من قبيل تحصيل الحاصل أن يقال أن الضحك يحدث مالم يمنعـه الالم . فان الالم يحجب الشعور بالمضحكات وغير المضحكات : يحجب المتعة بالنكتة كما يحجب المتعة بالجمال والجلال واللذة وبدائع الفنون على الاجمال

ويؤكد هذا ملاحظناه آنفا على تعريف أرسطو الذي يشترط في الدمامة المضحكة ألا تبلغ حد الالام . فان الانسان البليد لا يتألم ولا يفطن للضحك في وقت واحد ، واذا جمعنا اثنين أحدهما مرهف الاحساس والذهن والآخر ثـقيل الاحساس والذهن فلا يلزم أن يكون هذا أكثر فطنة للضحك من ذاك لانه بطيء الالم . بل يبـطـيء شعوره بالالم وشعوره بالضحك في وقت واحد ، ويفـقـل عن التشويه كله بجميع درجاته فلا يلـمـحه ولا يحسه في درجة من الدرجات

ومن ثم ننتهى بعد ما تقدم الى الثقة من شرط واحد في المضحكات وهو شرط المفاجأة التي تتحول بالشعور عن مجراه . فاذا كان الشعور جاريا في مجراه — كشعور الحزن العميق — فالمفاجأة لا تدفعه الى الضحك ، واذا كان في المجلس نفسه أحد لا يبلغ منه الحزن ذلك المبلغ من العمق والاستغراق فانه يضحك من المفاجأة لانها تستطيع أن تتحول بالمنظر ، أو المسمع ، من حس الاعصاب الى حركة العضلات

راى برجسون

والراى الثانى بين الآراء النموذجية هو راى هنرى
برجسون الفيلسوف الفرنسى صاحب مذهب دفعسة
الحياة

ورأيه فى الضحك أنه فى وقت واحد تطور منطقى وحاسة
اجتماعية

فنحن نضحك اذا رأينا انسانا يتصرف تصرف الآلة
ويقىس الامور قياسا آليا لا محل فيه للتمييز المنطقى ،
ولكننا نضحك فى الجماعة عامة ولا نضحك منفردين لان
الضحك تنبيه اجتماعى أو عقوبة اجتماعية لمن يغفل عن
العرف المتبع فى المجلس أو فى المحفل أو فى الهيئة الاجتماعية
بأسرها

والضحك عند برجسون انسانى بمعنى الكلمة جميعا ،
فلا يشاهد فى غير الانسان ولا يستثيرنا الضحك فى غير
عمل انسانى أو عمل نربطه بالانسان

فنحن لانضحك من منظر طبعى أو من جماد كائنا
ما كان الا اذا ربطناه بصورة انسانية ، وجعلناه شبيها
بانسان نعرفه أو منسوباً الى عمل من أعمال الناس . وقد
نضحك من قبعة نراها فلا يكون الضحك من القبعة بل من
الانسان الذى يلبسها ونتصور هيئته فيها

ومن شروط الامر المضحك عند الفيلسوف أن يكون
عملا انسانيا بغير معنى ، أو يكون المعنى فيه مطردا على
طريقة آلية كأنه من أعمال الادوات المجردة من التفكير

ومن شروط الامر المضحك عنده أن يحصل فى جماعة
أو يرتبط بالتصرف فى الجماعة . فقلما يضحك الانسان على

انفراد الا اذا استحضر العلاقة الاجتماعية في ذهنه ، وقلما ننظر الى أحد يضحك على انفراد الا خامرنا الشك في عقله ما لم يكن له عذر نعلمه ، فلا يزال الضحك على انفراد محتاجا الى اعتذار وتوضيح

لهذا يقرر برجسون أن الضحك مرتبط بالتصرف المنطقي وبالحاسة الاجتماعية في وقت واحد . فهو وسيلة من وسائل المجتمع لحمل ابنائه على التصرف فيه تصرف الراشدين الذين يفقهون معنى ما يصنعون

ويفسر الفيلسوف أنواعا كثيرة من الضحك على ضوء هذه الشروط . فيقول مثلا ان مرونة الحركة تهم الاطفال كثيرا فهم يضحكون من كل حركة تصطدم بغير وعى ويفقد فيها المرء قدرته على المرونة ، ويقول ان كل خلل في الحركة يضحكنا اذا قارنا بين الخلل الواقع ، وبين اللباقة التي يستدعيها تمام الخلقة والتكوين والتصرف المعهود . وكثيرا ما يضحكنا شرود الذهن لان الانسان الذاهل ينسى عقله وحاسته الاجتماعية ويتكلم أو يعمل على غير ما تقتضيه الحالة التي هو فيها

ويومئذ الفيلسوف الى مناظر المحاكاة فيقول ان المحاكاة تضحكنا لانها عمل يشبه عمل الآلات وتضحكنا لانها تلفت النظر الى الغفلة أو التناقض في الانسان المحكى لانه شبيه بالآلات ، واذا رأينا وجهين يتشابهان تشابها تاما ضحكنا لاننا نتصور انهما مصنوعان في قالب واحد كما تصنع الوجوه التمثيلية

ويضحكنا ان يتحكم الجسد في العقل والارادة تحكما غير مناسب للموقف الحاضر ، فنضحك من الخطيب الذي

تغلبه الحماسة والعطاس في وقت واحد ، ويضحكنا أن نرى أمامنا أحدا يطبق على الأحياء أحكام الآلات ، وهذا هو سر ضحكنا من الطبيب الذي يقول للمريض أن موته باطل لأنه لم يجر على وفاق الأصول المتبعة ويضحكنا الرجل الذي تتكرر في كلامه لازمة محفوظة نتوقعها فنضحك حين نسمعها

وهذا المثل من أمثلة برجسون جدير بالانتباه إليه ، لأنه يرجع رأيه على آراء القائلين بشرط المفاجأة في الضحك فالرجل الذي يكرر لازمة واحدة يضحكنا حين نسمع ما نتظره منه فلا يقال إذن أنه يضحكنا بالمفاجأة ، بل يصح فيه رأى برجسون وهو الرأى الذي خلاصته أن المضحك من أعمال الإنسان هو الذي ينساق فيه انسياق الآلات



ونحن نستدرك ما يستدرك من هذه الآراء في أثناء تلخيصه ، وقبل الانتقال إلى التعقيب الأخير عليه ، لئننا نحسب أن ننتهي إلى النتيجة خالصة من الاعتراض والاستدراك خالية من اللبس ودواعي الإطالة في المناقشة والتمحيص والمثل الذي يجب الانتباه إليه من أمثلة برجسون يرجع رأيه على رأى القائلين بالمفاجأة لأول وهلة ، ولكنه لا يلبث أن يعود بنا إلى القول بالمفاجأة من جانب آخر فمشابهة الآلات هي في ذاتها مفاجأة مستفربة من الأدميين العقلاء . ولهذا يتفق القولان ولا يتناقضان ، ويجوز أن يقال أن المفاجأة ومشابهة الآلة شيء واحد ، وأن مشابهة الآلة باب من أبواب المفاجأة لا يستوعبها ولا يمنع الضحك من غيرها

وأما الضحك من تكرار اللازمة التي تنتظرها فهو لا يدل قطعاً على نفى المفاجأة أو على الضحك من الشيء لأنه منتظر، بل هو نوع من استعادة الضحك السابق كما نبسم عندما يمر بخاطرنا تمثيل دور مضحك شهدناه من قبل ونود أن نعيده ونتملاه من جديد

وهذا المثل - بالذات - أصلح الامثلة لتوضيح الحقيقة في هذا الخلاف

فاللازمة المتكررة لا بد أن تتكرر حتى تصبح لازمة ملحوظة وحين نبدأ بالاستماع إليها لا نلاحظ أنها لازمة تعاد في مناسبة وفي غير مناسبة إلا إذا سمعنا صاحبها يتكلم في مسائل شتى ويعيد لازمته على اختلاف هذه المسائل وتناقضها، ومتى ثبت لدينا أنها لازمة وانتظرناها فأنما نحن نستعيد ضحكاً سابقاً ولا ننشئ الضحك لأول مرة، ويصدق على هذا النوع من الضحك أنه من قبيل استعادة المناظر التي سبق لنا أن ضحكنا منها وأحببنا أن نتملاها ونرجع إليها حيناً بعد حين



ونستطرد بعد هذا في سرد الامثلة المتعددة التي ينطبق عليها رأى برجسون، ومنها غير ما تقدم مثل الشاطر الذي يغلب بالشطارة، أو مثل الفخ الذي يقع فيه واضعه، فإن هذا الشاطر - على شطارته - يتصرف كالآلة حين ينعكس عليه عمله وهو أحق من سواه بالاحتراس منه

وهذا المثل - كالمثل السابق - يمكن تفسيره برأى برجسون ورأى القائلين بالمفاجأة معا . لاننا نتوقع من

الشاطر أن يغلب غيره بالحيلة ونشعر بالمفاجأة حين يقع غير المتوقع وهو انخداعه بما يخدع به الناس

ويعمل برجسون ضحك الكثيرين من النكتة الجناسية بأنها تحول الذهن من المعنويات الى الحسيات . لان الكلمتين المتجانستين تتشابهان في اللفظ وتختلطان في المعنى . فيتصور السامع الحركات الجسدية وهو يفكر في المعانى الاخلاقية او الذهنية ، وهذا الضحك يشابه الضحك من الخطيب الذى تأخذه الحماسة لفكرة من الافكار ثم يغلبه العطاس . . فانه في هذا الموقف مغلوب لضرورات جسده الآلية ويتصرف على الرغم منه كما تتصرف الآلات

وعلى هذا النحو مواجهة الذهن بكلمتين متجانستين احدهما مادية والاخرى معنوية ، وتلحق بالجناس كلمات الكناية والاستعارة والمجاز وسائر الكلمات التى تواجه الذهن بصورتين احدهما لائقة بالانسانية والاخرى غير لائقة ، كأن يقال عن أحد انه من أهل اليسار ، او انه فنان، او انه جبل ، او انه طويل الباع

والحاسة الاجتماعية عند برجسون أعم من جميع اسباب . فالضحك اذن ملكة اجتماعية يراد بها تصحيح الخطأ في معاملة الجماعة ، وهو يتناول الاخطاء التى لا تبلغ حد الاجرام لان المجتمع يعالج هذه بالجزاء القانونى او بالانتقام ، ويتناول الاخطاء التى ينبو عنها الذوق كل النبو مع سوء النية لان المجتمع يداوى هذه بالنفور والاشمئزاز وانما يكتفى بالضحك من الاخطاء التى يسهوا فيها الانسان عن التقاليد الاجتماعية على غير قصد وبغير نية سيئة . . فهذه الاخطاء يكفى في التحذير منها أن يتعرض صاحبها

للضحك وان يكون هذا الضحك عقوبة على قدر الاساءة العارضة ، فيحسب في هذه الحالة كأنه قانون خفيف حيث لا حاجة لتطبيق القانون الذى يحمى المجتمع من الجرائم والاضرار الجسام

بل يكاد يكون الضحك عقابا اجتماعيا خفيفا لمن يدينون بالاحكام الحرفية ويطبقون القواعد فى دقة وصرامة توحى الى الذهن أن الذى يطبقها آلة لا تفكر ولا تحس بماتصنعه ولا تفرق بين جزاء وجزاء وتقدير وتقدير

ففى هذه الحالة يكون الضحك تصحيحا لاحكام المبالغ فى «دقتها الحرفية» لأنها صفة آلية لاتليق بالقياس المنطقى والتقدير السليم

وزبدة الامثلة جميعا فى رأى برجسون تلخص اسباب الضحك فى حماية المنطق الانسانى وحماية الحاسسة الاجتماعية على الخصوص . فكلما هبط الانسان من مرتبة التصرف المنطقى الذى يناسب علاقاته الاجتماعية كان ذلك مثيرا للضحك منه لتنبيهه الى تقصيره، على شريطة الوقوف بهذه الاخطاء عند حد لا يبلغ الاجرام ولا يدخله سوء النية ، بل يخلو من كل قصد يقصده الكائن العاقل المتصرف ، فيرتد الى الحركة الآلية التى تتجرد من المقصد فى جميع الحركات

رأى فرويد

بقى من الآراء النموذجية رأى سيجموند فرويد Freud الطبيب النفسانى صاحب المذهب المشهور الذى شاع وشاعت مصطلحاته على الالسنه حتى أصبح حديث الوعي

الباطن والعقد النفسية ومركب النقض وما إليها من احاديث
الخاصة والعامة وكاد هذا المذهب أن يستأثر بتفسير خفايا
النفس البشرية في مسائل الاخلاق والعادات والبواعث
الفردية والاجتماعية

وقد أفرد الطبيب النفساني رسالة مسهبة للكلام
على النكتة ومدلولاتها الاجتماعية والفنية ومواطن الشبه
بينها وبين الاحلام والرؤى في الوظيفة التي تؤديها الفرد
والجماعة

وزبدة رأي فرويد ان النكتة ضرب من القصد الشعوري
والعملي يلجأ اليه الانسان في المجتمع ليعفى نفسه من أعباء
الواجبات الثقيلة ويتحلل من الحرج الذي يوقعه فيه الجد
ولوازم العمل ، وان النكتة تشبه الحلم في أساليبه وهي
التورية والتأويل والاختزال والمسح والتلفيق ، أى جمع
الصورة الواحدة من أجزاء صور متفرقة لاتجتمع في الواقع
والناس يقولون عن الرجل انه يمزح أو يقولون عنه انه
يحلم على السواء حين يريدون اعفاءه من المؤاخذة ولا يريدون
الجد معه في المحاسبة والتحقيق ، وكأنما يحتال المرء بالفكاهة
على بلوغ أمر لا يبلغه بالحجة والدليل ، وكذلك يحتال في
احلامه على تحقيق الامانى التي تفوته في اليقظة وتشغل باله
على غير جدوى ، فهو يستعين بالنكتة أو بالحلم على
صعوبة واحدة وهي تيسير الواقع والاعفاء من الكلفة والمشقة
وقد أورد في رسالته امثلة كثيرة سنشير الى بعضها
ونكتفى هنا بنادرة واحدة من النوادر الفكاهية التي تساوى
الاحلام في رفع الكلفة والسماح لقائلها أو سامعها بما هو

محظور عليه اذا جد في القول وعبر عن غرضه بالكلام الصريح :

رجلان من اصحاب الملايين صنعا صورة لهما عند رسام مشهور وعرضت الصورتان في معرض عام وبينهما فجوة تتسع لصورة ثالثة . فقال احد الناظرين وهو يتأمل الصورتين وينظر الى الفجوة التى بينهما : هاهنا متسع لصورة السيد المسيح

وسمع الواقفون كلمته وعلموا انه يقول عن صاحبي الملايين انهما لسان ، لان القصة المسيحية تقول ان السيد المسيح وضع على الصليب بين لصين ، وعلموا ايضا انه يعنى انهما يستحقان الصلب كما استحقه اوائك اللسان ، ولكنهم ضحكوا . وسمع صاحبا الصورة ماقيل فلم يجد سبيلا الى مؤاخذته او رفع امره الى القضاء ، ولعلهما او فعلا لاتهمهما الناس بالجلافة وجرا على نفسيهما من السخرية ماكانا في غنى عنه

ويريد فرويد منا في هذه النادرة واشباهها ان نتخيل قائل النكتة وهو يحلم ويعزى نفسه عن الحرمان من الشراء . فانه سيخلق في منامه قصة يتمثل فيها صاحبي الملايين مشهرين بين الناس بالسرقة او مسوقين الى ساحة القضاء او مغلقين وراء جدران السجون ، فيعمل الحلم عمل النكتة في ترضية الرجل بأسلوبين مختلفين يصدران عن باعث واحد لغاية واحدة

ويسرد فرويد أنماطا من النكتة تشترك بين الجناس والمغالطة ورد الحيلة بحيلة من قبيلها والتفاهم على الكذب والاجوبة المسكتة وكشف السر على غير قصد وغيرها من

المضحكات مما ينطبق عليه تعليله بسهولة أو ينطبق في صعوبة وتعسف

وهذه أنماط منها ننقلها بغير ترتيب ، ونبدأ منها بنادرة تشبه النوادر التي تروى عن قره قوش وتصلح للدلالة على وحدة المنطق الفكاهي بين الناس على تباعد الاقطار والاجناس يروى في بعض قرى المجر أن حدادا اقترف جريمة يعاقب عليها بالموت ، فحار قاضي القرية في أمره لانه الحداد الوحيد في القرية ولا تستغنى عنه بغيره اذا نفذ فيه الحكم، ثم اهتدى بعد التفكير الى حل المشكلة باعدام الطرزي بدلا منه لان القرية فيها طرزيان !

ومن الاقوال المضحكة التي استشهد بها فرويد قول الشاعر هاينى فى امرأة يعيبها فى قالب الثناء فيقول انها تشبه تمثال الزهرة « فينوس » . . لانها مثلها عتيقة جدا ، ومثلها بغير أسنان ، ومثلها فى البقع البيضاء على بشرتها الصفراء

وشبيه بهذا الثناء المعكوس قول القائل عن رجل يهجوهُ انه يشبه جميع العظماء ، فهو كالاسكندر ينحرف رأسه الى جانبه ، وكيوليوس قيصر يكمن شئ فى شعره على الدوام ، وهو يفرط فى شرب القهوة افراط ليبنتز ، وينسى الاكل والشراب اذا جلس على المائدة كأنه اسحاق نيوتن ، ويحتاج كما يحتاج اسحاق نيوتن الى من يوقظه . . وهو يلبس الشعر المستعار كالدكتور جونسون ، ويترك سراويله مفتوحة كمؤلف دون كيشوت

ومن نوادر فرويد عن اليهود - وهو يهودى - ان يهوديا رأى على لحية زميله بقايا طعام فقال له : « اننى أستطيع

أن أذكر لك الصنف الذي أكلته بالأمس » . قال زميله :
« حسن ، قل ودعنا نسمع » فقال له صاحبه المتعالم : « أنك
أكلت فولاً » . . فسخر منه أكل الفول وقال : « كلا . أنك
غلطان يا هذا ، فأننى أكلته أول من أمس ! »

وتلاقى يهوديان فى القطار فسأل أحدهما الآخر : « الى
أين تذهب ؟ » فأجابه الآخر : « الى كراكاو » فغضب
السائل وعاد يقول : « لماذا تكذب على ؟ . . أنك تعلم أنك إذا
قلت لى أنك ذاهب الى كراكاو فهمت أنا أنك ذاهب الى لبرج
. . ولكنى أعلم فى هذه المرة أنك ذاهب حقا الى كراكاو . .
فلماذا هذا الكذب ؟ »

ويذكر فرويد من فن النكتة أسلوبا يعتمد على اللعب
بلفظة واحدة تجعل من هدفها أضحوكة سهلة ، ومن قبيل
هذه النكات قول مزاح مشهور : « أن فلانا له مستقبل
عظيم وراءه ! » . . وقوله عن وزير زراعة أخفق فى عمله
فعاد الى حقله : « انه عاد الى مكانه أمام المحراث ! »

ويذكر أسلوبا يعتمد على اللعب بصفة واحدة تختلف
مراميها ، كما قيل عن فتاة كانت على اتصال بجميع رجال
الجيش : « انها تذكرنا بدريفوس ، لان الجيش لا يصدق
ببراءتها »

ويذكر المغالطة فى الجواب ، ومن قبيلها ان رجلا قصد
الى أحد المحسنين وأفهمه انه فى عسرة شديدة وانه يحتاج
الى قرض يسير للنجاة من كارثة محققة ، وبعد اعطائه
القرض بساعة رآه المحسن اتفقا فى مطعم من مطاعم الطبقة
العليا وامامه صفحة من السمك الفاخر فقال له مؤنسا :
« أهكذا تنفق المال الذى تستعيره للضرورات لتأكل به

الصحاف الفاخرة؟ » فأجابه المحتال وكأنه دهش من سؤاله:
« عجباً لك يا سيدى ! متى تظننى آكلها : ان كنت لا آكلها
مفلساً ، ولا آكلها وفى يدى ثمنها ؟ »

وعلى هذا النمط قصة مدرس فى إحدى القرى مولع
بالشراب لم يزل يدمن السكر حتى اعتزلته جميع الأسر
ونفر منه تلاميذه . فنصح له صديق قائلاً : « انك تستطيع
أن تجمع عندك تلاميذ القرية جميعاً لو تركت الشراب ، فلماذا
لا تحاول وتجرب ؟ » فأجابه المدرس السكر : « على رسلك
يا هذا . . انما أعطى الدروس لاجد الشراب فهل ترانى أترك
الشراب لأعطى الدروس ؟ »

وقريب من هذا اللعب بالمقابلة قول القائل فى تفاهة
الحياة : « انها نصفان تقضى نصفها الأول متطلعين الى
الثانى ، وتقضى نصفها الثانى متأسفين على الأول ! »

وسمع فواتير قصيدة روسو الشاعر الفرنسى الذى كتبها
يوجه فيها الخطاب الى الاجيال المقبلة ، فعقب عليها قائلاً :
« هذا خطاب لا يصل الى المرسل اليه »

وللاجوبة المسكتة نصيب وافر من أساليب الضحك عند
فرويد ، وهذه أمثلة منها :

كان القيصر أغسطس يسيح فى أرجاء ملكه فلمع شخصاً
يشبهه كل الشبه ، فسأله :

— اكانت أمك تعمل فى بيتنا ؟

فأجابه الشبيه الجرىء :

— كلا . . بل كان أبى

وكان بعض الوعاظ الأمريكين ينادى بحقوق السود
فى بلد ليس فيه كثير من السود . فقال له رئيسه :

— لم لا تذهب الى كنتكى حيث يقيم أصحابك ؟
فسأله الواعظ المسئول :

— ألسنت يامولاى تعمل لانقاذ الارواح من النار ، فلماذا
لا تذهب الى جهنم ؟

ويتخلل الامثلة كلها نوادر متفرقة تعتمد على الجناس
اللفظى الذى لا ينقل من لغة الى لغة ولا حاجة الى نقله
لكثرة هذه الفكاهات الجناسية فى اللغات جميعا ولا سيما
العربية . ثم يختم الرسالة بتلخيص لتقسيم المضحكات
الى ثلاثة أقسام : النكتة wit والهزل comic والدعابة humour
وكلها مما يفسر عنده بالقصد فى القوى النفسية ، ولكن
النكتة قصد فى العاطفة التى يكلفنا كبتها الكثير من مجهود
النفس ، والهزل قصد فى الفكر والمنطق ، واما الدعابة فهى
قصد فى الاحساس ، واننا نتطلب هذه الافانين جميعا بعد
سن الطفولة التى لا تعرف المفارقات المضحكة ولا تقدر
على تفكير النكتة ولا تحتاج الى الدعابة لتشعر بالسعادة



والى هنا يبدو لنا ان الامثلة التى استشهد بها رائد
المدرسة النفسية الحديثة لا ينطبق عليها تفسيره فى جميع
الاحوال ، وان القصد فى الشعور أو التفكير قد يتحقق
بالنكتة أحيانا ولكنه لا ينشئها ولا هى متوقفة عليه
ولنرجع الى نادرته عن اليهودى الذى قابل زميله فى
القطار وسأله عن وجهته فصرح له بذهابه الى كراكاو وعتب
عليه زميله لهذا الكذب لانه كان سيذهب فعلا الى كراكاو
ولم تجر العادة بذكر الوجهة الحقيقية فى اجابة أمثال هذا
السؤال

فلا قصد في هذه النادرة ولا ادخار ، وليس فيها موضع لزيادة في المقال أو الاتهام ، ولكنها تضحك السامع لانها تفاجئه بغرابة اللوم لهذه المناسبة ، فان السامع يسمع اللوم على الكذب فلا يخطر بباله أن الكذب في عرف المتحدثين هو الجهر بالصدق الصراح، ثم يفاجأ بسبب اللوم فتكون المفاجأة عماد الفكاهة هنا كما كانت عماد الفكاهة في جميع النوادر التي استشهد بها فرويد من المغالطات أو التحريفات أو الاجوبة المسكتة ، وليس في الجواب المسكت قطس في الشعور أو القول، ولكنه مثل واضح للمفاجأة على الخصوص حين يكون السائل على ثقة من احراج المسئول فلا يلبث أن يأتيه الجواب السريع فيرتد الحرج اليه



ويجوز لنا بعد هذه التعليقات الموجزة أن نفهم أن رأى برجسون ورأى فرويد لا يناقضان تفسير الضحك من الوجهة الجسدية كما أجمله داروين في كتاب التعبيرات وفصله سبنسر في مقاله عن الضحك من الوجهة الفزيولوجية وأنهما لا يفتنيان عن ذلك التفسير في النهاية سواء كان سبب الضحك فكرة أو مشاهدة حسية ، لان نتيجته هي ان يتأثر الجسد به على النحو الذي ذهب اليه سبنسر وداروين من قبل

مفاجأة تحبس الفكر أو الشعور عن مجراه فيتحول عنه الى العضلات ويبدأ الاثر في أسهل هذه العضلات حركة ثم يسرى الى غيرها من عضلات الجسم كله اذا اشتد الباعث على الضحك

ولا تناقض بين هذا وبين قول برجسون اننا نضحك من الانسان اذا تصرف في حركاته وأقواله تصرف الآلة الصماء . فان هذا التصرف يفاجئنا بشيء لم ننتظره من انسان عاقل تجرى أعماله على حكم المنطق الفطرى الذى طبع عليه الانسان المسمى بالحيوان الناطق أو الحيوان المنطقى بعبارة أخرى . فنحن ننتظر عملا منطقيا فنرى أمامنا عملا آليا على غير انتظار أو على خلاف المنتظر ، وهذه هى المفاجأة التى ترجع بنا الى تفسير داروين وسبنسر ، وقد ضحك الانسان من النقائص المفاجئة قبل شيوع الآلات وخلق له جهاز الضحك قبل احتقاره التشبه بالآلة

وقول برجسون أن الضحك تنبيه اجتماعى لمن يدهلون عن آداب البيئـة لا ينقض هذا السبب ، لانه فائدة من فوائد الضحك لا تفسر أسبابه ولكنها تدل على غاية من غاياته ، والفرق ظاهر بين الاسباب والغايات

ويرجع بنا رأى فرويد الى المفاجأة كما يرجع بنا رأى برجسون اليها . فان استخدام الضحك أحيانا فى «الاقتصاد الشعورى» هو أيضا من قبيل الفوائد التى نستفيد منها، وليست الفوائد كما تقدم مبطلـة للأسباب

وليس فى النوادر التى تمثل بها فرويد نادرة واحدة تخلو من المفاجأة وتغنيينا عن تفسير سبنسر أو تفسير داروين ، فالجواب المسكت مفاجأة ، والحيلة التى ترتد على صاحبها مفاجأة ، والتخلص السريع بالمغالطة التى تخالف المنطق المألوف مفاجأة ، وتكذيب الجواب الصادق لان الصدق غير مألوف من صاحبه مفاجأة ، وسائر النوادر التى نقلناها أو لم نقلها ترجع بنا الى علة المفاجأة من اقرب طريق

وقد فرق الباحثون في الضحك بين كثير من المضحكات
لاختلاف أسمائها كما تختلف كلمات السخرية أو الاستهزاء
أو الدعابة أو الفكاهة

فاذا استرسل الناظر في تتبع هذه الفسروق وجد في
النهاية أنها تؤول الى فروق بين انواع الضاحكين وليست
فروقا بين انواع الضحك في أصوله
فالضحك كله مفاجأة تتحول بالفكرة أو الشعور عن
مجرأه

ولكن السخرية التى تؤام الناس أو تكشف عيوبهم
ومثالبهم هى ضحك الشرير الخبيث
والاستهزاء الذى يتعالى صاحبه على الناس هو ضحك
المتكبر الذى غلظت نفسه فلا يبادلهم الشعور، أو هو ضحك
العابث الذى يستخف بكل شىء ويجد الناس وهو ناظر
الى جدهم بغير اكترأث

والدعابة التى يشترك فيها الضاحك والمضحوك منه هى
ضحك القلب الطيب الذى يسر نفسه ويسر غيره بمنأنا
يكشفه من هفواتهم أو يعرضه من نقائصهم ، فلا يحسون
أنه يفردهم بتلك النقائص أو يأخذ تلك الهفوات مأخذ
الشمأة والخيلاء

والفكاهة التى تمثل لنا المضحكات هى ضحك الفنان
أو الناقد الذى يصور لنا دواعى الضحك ويبعد فى تصويرها
وتمثيلها ، فهو مضحك وليس بأضحوكة ، أو هو واضع
الضحك وليس بموضوع للضاحكين

وهذه كلها فوارق بين الضاحكين وليست فوارق بين
انواع الضحك فى الصميم

ومن الشائع جدا أن يقترن بالضحك شعور الغبطة
بتفوقنا على الآخرين ، ولكن لا يندر أن نضحك من أنفسنا
إذا فوجئنا بالهزيمة التي لا نتوقعها في موقف نظن فيه
أننا نحكم الشباك لغيرنا فإذا هو قد أفلت من تلك الشباك
وأوقعنا فيها

ومن هذه الهزيمة المفاجئة ضحك الساسة والامراء
حين بلغهم افلات نابليون من جزيرة ألبا وعودته الى فرنسا
وهم يحسبون انهم وضعوه في القفص وجلسوا بعده يقررون
مسير القارة الاوربية من بعده

ولو انهم فوجئوا بنابليون يحاصرهم في مؤتمرهم ويهددهم
لساعته في ارواحهم أو عروشهم لما ضحكوا كما ضحكوا
وهم آمنون في تلك الساعة

الا أن هذا لا ينفي أن المفاجأة مضحكة ، وأن السامع
البعيد يضحك منها وان لم يضحك منها الساسة والامراء
المحاصرون لاشتغال شعورهم بالخطر القريب ، ولهذا يبقى
عنصر المفاجأة قائما في تفسير اسباب الضحك . ويختلف الامر
بحسب الضاحكين في الشعور بالخطر ساعة المفاجأة ، فمن
كان قريبا شغله الخوف عن الضحك ومن كان بعيدا لم
يشغله عنه خوف عاجل يغطى على شعوره في تلك الساعة
ويتساوى في هذا الشعور بالضحك والشعور بالجمال
والشعور باللذة ، فلو كان المعروض على مؤتمر الساسة
فتنة من فتن الزهرة ربة الجمال وحاصرهم العدو المهدد
لحياتهم اشغلهم الخطر عن الشعور بذلك الجمال الفتان ،



جھا لشیپھ جھا : حسبتك انا .. لان
ئىبابك كئىابى ومشىتك كمشىتى !.

ولو كانت مائدة طعام جمعت مالد وطاب بين أيديهم ثم
حوصروا ذلك الحصار لشغلهم الخطر كذلك عن طلب الطعام
الذيذ وعن طلب القوت

فلا يلزم اذن أن نقول أن الشيء المضحك هو الشيء المشوه
الذي لم يبلغ درجة الايلام ، لان بلوغ درجة الايلام يعطل
كل شعور ولا يعطل الشعور بالمضحكات دون سواها
وصحيح - بعد هذا - أن نجمل التفسيرات جميعا
فنقول ان الضحك ينجم عن مفاجأة تتحول بالفكر وبالشعور
عن مجراه ، وأن الاختلاف بين السسخرية والاستهزاء
واللعابة والفكاهة لا يلجئنا الى البحث عن اختلاف في أنواع
الضحك لانه هو في لبابه اختلاف بين الضاحكين



الضحك
في الكتب الدينية

فى القرآن الكريم

لا يتقابل شعوران من طرفى التعظيم والاستخفاف كما يتقابل الشعور بالمقدس والشعور بالمضحك فى النفس البشرية

ولا يوجد لنا مرجع نعتمد عليه فى هذه المقابلة الواقعية اولى بالرجوع اليه من الكتب المقدسة ، ولا سيما الكتب التى تسوق العبرة من القصص والامثال وتروى الاخبار عن الضحك والضحكين من مختلف الطبائع والامزجة وفى مختلف المناسبات

وهذه الاخبار متكررة فى القرآن الكريم ، وكلها شاهد محكم للعالم النفسانى يركن اليه فى تفسيره لاطوار النفس البشرية ، حيث تبرز حقيقة الضحك مع سياق الكلام عنه فى كلام مقدس ، لبروز الفارق بين الشعورين : شعور القداسة فى موضعها وشعور الضحك بشتى معانيه

جاءت الاشارة الى الضحك فى القرآن الكريم مرة فى قصة ابراهيم ومرة فى قصة سليمان عليهما السلام
ففى قصة ابراهيم يقول ابراهيم حين زاره الملائكة فلم يعرفهم وخافهم ثم بشره بولادة اسحاق من زوجته سارة :

» ... فلما رأى ايديهم لا تصل اليه نكرهم وأوجس

منهم خيفة قالوا لا تخف انا أرسلنا الى قوم لوط وامراته
قائمة فضحكت فبشرناها باسحاق ومن وراء اسحاق
يعقوب قالت يا ويلتى ألد وأنا عجوز وهذا بعلى شيخا
ان هذا لشيء عجيب »

فهنا خوف فاطمئنان فبشرى مفاجئة على غير انتظار ،
فتعجب لا تملك سارة أن تجهر به فتقول : ان هذا لشيء
عجيب

كل عوامل الضحك النفسية التي ظهرت للباحثين
النفسانيين في تفسيراتهم - تعرضها هذه الآية الكريمة
على نسقها المتتابع فتأتى بالضحك حيث يأتى الضحك
مطردا في مواضعه المختلفة من تحول الشعور طمانينة بعد
خوف ، ومعرفة بعد نكران ، وبشارة بما ليس في الحسابان
من الولادة بعد سن اليأس وخيبة الامل في الذرية زمنا
طويلا تعتلج فيه النفس بأشتات من دواعى الحزن والعزاء
والغيرة والتسليم

ولا تغنى هنا كلمة «سرت أو كلمة استبشرت أو فرحت»
في مكان كلمة ضحكت . فان الضحك هو الاثر الملائم لهذه
الحالة التي تشابكت فأصبحت في قرارة النفس حالات
متناقضات



وجاء في القرآن الكريم عن قصة سليمان عليه السلام :
« حتى اذا اتوا على وادى النمل قالت نملة ياايها النمل
ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم
لا يشعرون فتبسم ضاحكا من قولها وقال رب اوزعنى أن

أشكر نعمتك التي أنعمت على وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه »

فها هنا عوامل الضحك على سجيتها ماثلة في نقائضها الدقيقة ومصاحباتها التي تقترن بهما على حسب هذه المناسبة دون غيرها ، وهي مناسبة مخالفة في بعض أجزائها لمناسبة الضحك في قصة إبراهيم

هنا الفارق الشاسع بين ضالة النمل وبين ضخامة الملك الذي أوتي سليمان

وهنا عجب سليمان من ظن النملة انه لا يدري بموقعها ولا يشعر بها ولا يفهم عنها ما تقول

وهنا رضى سليمان بما تفيضه نعمة الملك العريض في نفسه من السعة والغبطة وتلهمه من الشكر والخشوع ، وكل ذلك آت من حيث لا ينتظر : من نملة ضئيلة تخشى أن تحطم هي وواديها كلها ولا يشعر بهم سليمان العظيم

وورد الضحك في آيات متفرقة بمعنى السخرية والاستهزاء ، فجاء في سورة المطففين : « ان الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين وإذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون »

فالضحك هنا مقترن بالتغامز الخفى ، كأنما يحسب المستهزئون انهم يستغفلون المؤمنون الذين يمرون بهم فيسخرون منهم بالتغامز بينهم ، ويضحكون اذا التفت اليهم المؤمنون على حين فجأة فلا يكون اخفاء العبث والسخرية ، كما يحدث دائما بين المتغامزين اذا انكشفوا

وامتنع عليهم الكتمان والتمادى فى الاستهزاء من وراء
الانظار

والضحك الاخير يأتى حين لم يكن فى الحسبان ، لأن
الكفار كانوا يضحكون فاذا بهم قد اتقلب عليهم الامر فهم
أضحوكة للضحاكين ، وهؤلاء وادعون على الارائك ينظرون
وجاء فى سورة الزخرف : « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا
الى فرعون وملاه فقال انى رسول رب العالمين فلما جاءهم
بآياتنا اذا هم منه يضحكون »

وضحك المفاجأة هنا واضح من طلب الآيات ثم اخلاف
ظن موسى عليه السلام لانهم عثوا به وهو ينتظر منهم بعد
مجيئهم بالآيات ان يؤمنوا فاذا هم يفاجئون به بما لم ينتظر
من اصرارهم على الكفران

ولا بد فى كل ضحك من الشعور بالمفاجأة فى الضاحك
او فيمن يتعرض للضحك . فهو شعور ملازم للمضحكات
من طرفيها

وفى سورة النجم عن نوح عليه السلام : « وقوم نوح
من قبل انهم كانوا هم اظلم واطغى والمؤتفكة أهوى
فغشيها ما غشى فبأى آلاء ربك تتماهى هذا نذير من النذر
الاولى ازفت الآزفة ليس لها من دون الله كاشفة أفمن هذا
الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وانتم سامدون
فاسجدوا لله واعبدون »

ففى هذه الآيات يحسب الرسول انه يأتهم بما يبكيهم
فلا يحسون داعية للبكاء ويستغربون فينتقل بهم الاستغراب
من أحاديث الرسول عن نذير الآزفة المطبقة الى الأمان
الذى يتصورونه ولا يحسون غيره . وبين هذين النقيضين

المتباعدين يتعجب القوم ويضحكون : موقف لا وسط فيه بين البكاء والضحك . فاما أن يحس السامع نذير الآزفة فيبكي أو يستغريها ويستبعدا فيضحك تعجبا من كلام القائل واطمئنانه الى الأمان الذي يقال لهم انهم مهددون فيه

والضحك من البلاء الذي لا يحسه السامع ويحس نقيضه كالضحك من البلاء الذي يحسه ويحس انه ناج منه ، وقد تكرر ذكر الضحك بهذا المعنى فجاء في سورة التوبة عن المخلفين الذين فرحوا بمقعدهم عن القتال : « فرح المتخلفون بمقعدهم خلف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون »

وهذا الضحك أيضا مقرون بالسمع عن الخطر مع الشعور بالأمان ، فهو — كما تقدم — كالشعور بالخطر حيث يغلب اليقين بامتناعه أو يمتنع بعد نذير لا يخيف



وقد ورد في القرآن الكريم ذكر الضحك بمعنى السرور لأنه يلزمه في معظم دواعيه ومظاهره

وورد ذكر السخرية والاستهزاء ، وهما في أكثر الآيات بمعنى الاستخفاف والكبرياء ، أو بمعنى التردد بين حالتين : حالة ظاهرة وحالة باطنة تناقضها ، ولا يخفى أن تقلل الشعور بين هاتين الحالتين سبب من أسباب الضحك على اختلاف الضاحكين : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا

واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون
الله يستهزىء بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون «
وما من آية ورد فيها ذكر السخرية الا كان فيما تحويه
شعور قوم فارغين باجتهاد الانبياء وندائهم في غير طائل
على ما يبدو لأولئك الفارغين ، ويتكرر هذا الضرب من
السخرية في قصة نوح لانه من جهة ينذر ويحذر ويتوعد
بالغضب المحيق ، وهم من جهتهم وادعون غافلون يمرون
به وهو جاهد في عمل الفلك فيتضحكون :
« ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا
منه قال ان تسخروا منا فانا نُسخر منكم كما تسخرون
فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب
مقيم »

وكلا الجانبين - جانب نوح وجانب قومه - فيه أمان
مع خوف يتناقضان ، وفيه ثقة تناقض الثقة التي تقابلها ،
فكلاهما عنده سبب للسخرية بين هذين النقيضين

في التوراة

وقد مر بنا استشهاد الفيلسوف العبرى بالتوراة عن
ضحك الاله ممن يفترون بقدرتهم ويعتزمون أموراً يجترئون
عليها ثم يعجزون عنها
وهذا الشاهد مأخوذ من المزمور الثاني الذي يقول
ناظمه انه يسمع دعوى المفرورين فيضحك لأنه أخبر منهم
بما يريد الرب على عرشه ، وهذا نص المزمور :
« لماذا ارتجت الامم وتفكر الشعوب في الباطل
« قام ملوك الارض وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى

مسيحه . لنقطع قيودهما ولنطرح عنا ربطهما
« الساكن في السماوات يضحك

« الرب يستهزئ بهم . وحينئذ يتكلم عليهم بغضبه
ويرجفهم بغيظه . أما أنا فقد مسحت ملكى على صهيون
جبل قدسى

« اننى أخبر من جهة قضاء الرب »

فالضحك هنا يترجم عن حالتين متناقضتين : احدهما
غرور ظاهر بالقوة ، والآخر حقيقة هذا الغرور العاجز
الذى لا قبل له بما يدعيه

والاختلاف بين هاتين الحالتين هو مشار الضحك مجازا
بالنسبة للاله ، وحقيقة بالنسبة الى الانسان

وجميع ما ورد في العهد القديم عن الضحك فانما يفهم
الضحك فيه بمعنى الاستهزاء والسخرية اذا كان من
المنكرين ، وبمعنى الاستغراب والدهشة اذا كان من المؤمنين
وجميع هذه الشواهد ينحى على المستهزئين لأنهم
يستكبرون ولا يصدقون ، فهم يستهزئون بالانبياء لأنهم
يرونهم بأعينهم مدعين القدرة ظاهرا وعلى غير شئ في
الباطن ، والانبياء يستهزئون بهم لأنهم يرون الحقيقة
معكوسة من جانبهم على أولئك المنكرين المستكبرين ، فهؤلاء
المنكرون المستكبرون هم الذين يتنفخون على هواء ، ويرى
النبي صورتهم المنتفخة وصورتهم الخسائية فيرى منهم
تناقضا يوحى بالاستهزاء ، ولا سيما حين يفتر أصحابه
فيستهزئون بالعارفين

ففى سفر أشعيا يقول النبی عن الامراء والسادة :

« اسمعوا كلام الرب يا رجال الهزء — ولاة هذا الشعب
الذى فى اورشليم »

وفى الامثال من الاصحاح الاول كلام عن ضحك الشماتة
والاستهزاء يقول فيه صاحب السفر : « انى دعوت فأبستم
ومددت يدي وليس من يبالى ، بل رفضتم كل مشورتى
ولم ترضوا توبيخى ، فأنا أيضا أضحك عند بليتكم ، اشمتم
عند مجيء خوفكم »

وليس أكثر فى كتاب الامثال من الإشارة الى الاستهزاء
بمعنى الكبرياء والغرور والجهالة ، ومن الإشارة الى جزاء
المستهزىء وأثره السيئ فى قومه وحكمة تأديبه لينتفع
الحمقى بعبرته ويزدجروا بالنظر الى مصيره

قال : المستهزىء يطلب الحكمة ولا يجدها
وقال : المنتفخ المتكبر اسمه مستهزىء عامل بفيضان
الكبرياء

وقال : اضرب المستهزىء فيشدكى الاحمق
وقال : بمعاقة المستهزىء يصير الاحمق حكيما
وقال : المستهزئون يفتنون المدينة ، اما الحكماء فيصرفون
الغضب

وقال : الابن الحكيم يقبـل تأديب أبيه والمستهزىء
لا يسمع انتهارا



وكتاب الامثال أكثر الكتب فى العهد القديم اشارة الى
الهزء والاستهزاء ، وهو تكرار يوافق طبيعة السفر كله ،
لان الامثال سفر الحكمة والتجربة وهما تقيض الاستهزاء
الذى يستخف صاحبه بجميع الامور ولا يزال كذلك حتى

تهديه تجارب الايام الى الاعتبار بالحوادث وبعد النظر في
عواقب الامور ، فاذا هو ينظر اليها كما قال الشاعر العربى:
أمور يضحك السّفهاء منها

ويبكى من عواقبها اللبيب
وليس فى كتب العهد القديم كتاب تكررت فيه الاشارة
الى الاستهزاء كما تكررت فى كتاب الامثال ، ولكنه جاء فى
بعض الكتب على ندرة واختلاف يسير فى المعنى ، وكادت
قصة سارة فى سفر التكوين أن تنم عن ضحك بمعنى
الاستغراب والاستعظام ، لانها لا تستهزىء بالبشارة
ولكنها تستغربها ولا تطمئن اليها لأول وهلة ، ولهذا يروى
الاصحاح الثالث عشر عنها انها ضحكت فى باطنها وانها
انكرت الضحك حين سمعت من ضيوف ابراهيم سؤالا
فيه شىء من صبغة اللام :

« وقالوا له : أين ساره امرأتك ؟ فقال : ها هى فى
الخيمة ، فقال انى أرجع اليك نحو زمان الحياة - اى
الربيع - ويكون لساره امرأتك ابن . وكانت ساره سامعة
فى باب الخيمة وهو وراءه ، وكان ابراهيم وساره شيخين
متقدمين فى الايام ، وقد انقطع ان يكون لساره عادة كالنساء
فضحكت ساره فى باطنها قائلة : أبعد فنائى يكون لى تنعم
وسيدى قد شاخ ؟ فقال الرب لابراهيم : لماذا ضحكت ساره
قائلة : افعبالحقيقة الد وانا قد شخت . هل يستحيل على
الرب شىء ؟ فى الميعاد أرجع اليك نحو زمان الحياة ويكون
لساره ابن . فأنكرت ساره قائلة لم أضحك ، لانها خافت ،
فقال لا بل ضحكت »

فالمواضع التى ورد فيها الضحك فى كتب العهد القديم

انما كانت تنديدا بخلقة الاستهزاء والسخرية ، أو كانت
بمعنى الاستهزاء الذى يرد الاستهزاء على أصحابه ، ومن
هذا القبيل ما ينسب الى الاله أو الى عباده الصالحين
وبهذا المعنى نسب الى أيوب حيث جاء فى سفره :
« لا ترفض تأديب القدر لأنه هو يجرح ويعصب ، يسحق
ويداه تشفيان ، فى ست شدائد ينجيك وفى سبع لا يمسك
بسوء ، فى الجوع يفديك من الموت وفى الحرب من حد
السيف ، من سوط اللسان . فلا تخاف من الخراب اذا
جاء . . . تضحك على الخراب والمحل ولا تخشى وحوش
الأرض »

وهنا يعود أيوب فيهزأ بالخراب والمحل بعد أن كان
ضحكة لهما أو ضحكة للهازلين الذين حسبوه فريسة لهما
وحسبوا ألا نجاة له من مصابه بهما وبغيرهما من ضروب
المحنة والبلاء

لا جرم يقال عن الضحك بمعنى الاستهزاء . كما جاء
فى الامثال : « انه فى الضحك يكتب القلب وعاقبة الفرح
حزن » . . . أو كما جاء فى الجامعة : « ان الحزن خير من
الضحك لانه بكآبة الوجه يصلح القلب »

ولم يذكر الاستهزاء بخير فى كتب العهد القديم الا أن
يكون ردا على المستهزئين وعقابا للسخرية والمجون
على ان الضحك قد ورد فى العهد القديم بمعنى السرور
مقابلا للحزن مصحوبا بالغناء ، كما جاء فى المزامير بعد رد
السبى « اننا . . . حينئذ امتلأت افواهنا ضحكا والسنتنا
ترنما »

ولا يلزم فى هذا المعنى تفسير الضحك بالاسباب التى

أجملناها فيما تقدم ، ولكنه — على هذا — لا يخلو من
الشعور بالنقيض بعد النقيض ، اذ ينتقل المرء من الاسر
الى الطلاقة ، فيعبر عن فرحه بالضحك والغناء

في الانجيل

اما في العهد الجديد فقد جاء ذكر الضحك في انجيل
لوقا على لسان السيد المسيح حيث يقول وقد رفع عينيه
الى تلاميذه :

« ورفع عينيه الى تلاميذه وقال : طوباكم ايها المساكين
لان لكم ملكوت الله . طوباكم ايها الجياع الآن لانكم
تشبعون . طوباكم ايها الباكون الآن لانكم ستضحكون »
وهنا يأتى الضحك مقابلا للبكاء ولا يخلو من دواعى
الضحك فى جميع الاحوال واهمها تبدل الحال والمقابلة بين
النقيضين



وهذه الشواهد من هذه الكتب الدينية التى يقرأها
المؤمنون بها ويقدمون ما فيها — خير ما يستشهد به على
طبيعة الضحك فى حالات متعددة ، لأن هذه الدواعى تبرز
فى مواضعها بوضوح واضح بما يقابلها من شعور القداسة ،
وتنبؤنا عن أناس متباعدين فى الأزمنة والأمكنة والطبائع
والاخلاق ، فنعلم ان الانسان انسان فى كل زمان ومكان ،
وان الضحك خاصة انسانية . تعم بنى الانسان

الإنسانية والفظافة

أيا ما كان القول في تعريف الضحك وتعليله ، فمن أصح
الاقوال مع جميع التعريفات والتعليلات أن الضحك - كما
قال برجسون - ملكة انسانية من طرفيها ، فلا يضحك
الا انسان ، وما من شيء يضحكنا الا أن يكون « انسانيا »
في صورة من صورته ، ولو على سبيل التشبيه

ولنا أن نقول ان الانسان حيوان ضاحك كما نقول ان
الانسان حيوان ناطق

أفنعني بذلك ان كل انسان يضحك بلا استثناء ؟
كلا . الا كما نعني أن كل انسان ينطق ويفكر ويتكلم
بلا استثناء

فهناك خرس لا ينطقون ، وهناك بله لا يفكرون ، وهناك
صفار أو همج تتولاهم الفرائز على نحو قريب من سيطرة
الفرائز على الاحياء التي لا تساوى البشر في الخلق أو في
الذكاء

ولكننا مع ذلك نقول ان الانسان حيوان ناطق ونريد
بذلك أنه ناطق « بالقوة » على اصطلاح المناطقة ، أو
بالاستعداد العام في أبناء نوعه كما نقول في عرف المصطلحين ،
وكذلك يقال ان الانسان حيوان ضاحك ومنه جماعات
بدائية لا تفهم الضحك ولا تدري موقعه من أعمال الناس ،
ولا تميز بين المضحكات وغيرها من الاعمال المخالفة للمألوف ،
لأن مخالفة المألوف بين أبنائها ظاهرة نادرة جدا لانطباعهم

على العرف المتوارث الذى لا يخالفونه الا وقعوا فى محذور
« المحرمات » . . . مع قصورهم عن المقارنة اتى تتضح
منها النقائص ومواطن الضحك أو الاستغراب

ولعل هذا العجز عن الضحك فى هذا الطور من أطوار
الانسانية معزز لقول القائلين ان الضحك خاصة انسانية
لا يشترك فيها عامة الاحياء . فلا يضحك الانسان وهو
— بعد — قريب من أطوار الحيوانية فى حكم الغريزة وغلبة
العادة على التفكير ، واذا رجعنا الى تفسير برجسون فى هذا
الصدد فلا محل للمفاجأة هنا من جريان الانسان على سنة
الآلات فى اطراد العمل بغير تفكير ، فان القبائل البدائية
المفرقة فى الهمجية تجرى كلها على هذه السنة ، ولا يكون
فيها مخالفا للمألوف الا الذى يشذ بالتصرف على خلاف
الوتيرة المطردة وانتهج المرسوم

اما بعد هذا الطور من الهمجية البدائية فالشعوب جميعا
تعرف الضحك وتعرف واضعه وموضوعه بالتجربة العملية
وان لم تعرفهما بالتفسير والتقسيم

ونريد بواضع الضحك من يخلقه بتمثيل المضحكات
واختراعها وحكايتها كالفنانين والندماء

ونريد بموضوع الضحك من يكونون أضحوكة الناس
بالغفلة أو النقص أو التصرف المتناقض الذى يحول شعور
ناظره من وجهة الى وجهة على حين غرة على الاجمال

الأمم الضاحكة

وقد جرت عادة المصاصرين على وصف بعض الأمم
بالفكاهة وتجريد بعضها منها أو وصفها بجهلها وبطء

الاحساس بها عند المقابلة بينها وبين الأمم « الفكاهية »
والثابت انذى لا شك فيه عن جميع الأمم أنها اخرجت
نوابغ الفكاهة في جميع أجيالها ، وانها في العصر الحاضر تمثل
الفكاهيات وتعرضها على جمهرة من أبنائها ، فلا توجد أمة
متحضرة لها تاريخ قديم خلت من نوابغ الفكاهة ومن آثار
هؤلاء النوابغ في الآداب والفنون

ولكننا نرى أن احصاء النوابغ هنا لا يفيدنا كما يفيدنا
دليل الأمثال التي يتداولها الناس ويتوارثونها جيلا بعد
جيل ، فان آثار النوابغ قد تكون مقصورة عليهم وعلى فئة
من قرائهم أو من القادرين على الاستمتاع بفكاهتهم ، ولكن
الأمثال الشائعة ترجمان صادق لتفكير الأمة وشعورها
وطريقتها في التعبير عن تجاربها ، وهذه الطريقة تكاد أن
تتفق في جميع الأمم أو تتقارب غاية التقارب في المضامين
والمرامى وان لم تتقارب في اللفظ والتركيب

وهذه أمثال الأمم بين أيدينا تقتزن فيها الحكمة أو تأتي
فيها الحكمة من طريق الفكاهة على أسلوب متمزج فيه
السخرية بالتهكم والعطف والدعابة ، وتؤخذ فيه الحكمة
مأخذ الجد والمزاح في وقت واحد ، لأنها تشير الى عواقب
الخطأ والحقاقة اشارة التعقيب بعد مرور المئات من الأمثلة
والقرائن والمناسبات ، فهي تتكلم في أمان بعد فوات الضرر
وقبل وقوعه على المقصودين بالنصيحة والتذكير

وعلى سبيل التمثيل بالواقع نستشهد هنا بالأمثال في
أمتين من أمة المشرق وأمتين من أمة المغرب ، يقال عن
أحدهما أنها أمة ذات فكاهة أو أمة فكاهية ويقال عن الأخرى
أنها لا تظن للفكاهة وأنها اشتهرت بالجهامة واخذ الأمور

كلها بالجد والصراحة التي لا تعرف التورية والتلميح
ففى المشرق أمة الفرس مشهورة بالنكات القديمة
والحديثه من عهد الحضارة الكسروية ، وأمة اليابان مشهورة
بالكد والدأب والانصباب على العمل والتكيف
وفى المغرب تقابل هاتين الأمتين الأمة الفرنسية فى صفة
الفكاهة والأمة الألمانية فى صفة الجد والجهامة
وهذه طائفة من أمثلة الأمة الفارسية - التى يقال عنها
أنها فرنسا الشرق - تتبعها بطائفة من أمثلة الأمة اليابانية
بغير اختيار بين صفحات الكتب الجامعة لامثال هاتين الامتين

امثال فارسية

الصدق والسكر زميلان
الحب والعطر لا يختبئان
الخادم الجديد أسبق من الغزال
ليس القلب مائدة تبسط لكل ضيف
الذهب والحجر من معدن واحد فى الصندوق
الخائط عريان والاسكاف حاف
الجاهل لا نفع فيه ، لاهو انسان ولاهو حمار
يبيع الجلد قبل صيد الغزال
من دواعى الرثاء أن تنفق الذهب فى الطلاء
لا لزوم للسماك فى بركة بلا ماء
الكلام يلد الماء والأمطار تلد الثلوج
ما الفائدة ؟ عند ما استطيع لا أعرف وعندما أعرف لا
استطيع !

وهذه متفرقات بعددها - اثني عشر - من أمثال الامة
اليابانية في معارض شتى من حكمة الحياة :
الحب لا يميز بين « الميكاد » والفلاح
قد ترى السماء من ثقب ابرة
صدر الانسان أصون الصناديق لاسراره
نصف الناس يضحكون من النصف الآخر ، والنصفان
حمقى

إذا تقدمت حماقة رجعت الحكمة
أعتى العواصف لا تثير الموج في أعماق الآبار
ما من شجرة تحمل الارز مطبوخا
لا السكر يدري بعار الخمر ولا المفيق يدري بسلطانها
لا يرجع الضحك بما أذهبه الغضب
المباغة في التحية ازدراء
أجمل الفلال نبت في حقول الآخرين
أقرص نفسك تعلم لماذا يصيح المقروص
والامة الفرنسية أشهر أمم الغرب بالفكاهة فيما تداولته
الأسنة من شهرة الأمم . وهذه متفرقات من أمثالها :
لاتذهب الفضيلة بعيدا الا أن يكون الغرور في ركبها
حب الذات أبرع المتملقين
المذنب المحبوب سرعان ما تنكشف براءته
خيال بلا علم أجنحة بلا أقدام
الحمقى القدماء أحقق من اخوانهم المحدثين
البساطة المفتعلة تكلف مطلقا
لا يقول عن الحظ انه أعمى الا الذي لا يراه
تزيدنا السن حمقا كلما زادتنا حكمة

أصدقاؤنا الأعزاء يقولون كما نقول
الحب مملكة المرأة
للقلب منطق لا يعرفه المنطق
الذى يحسن الحساب لا يثق من حساب



وتلى هذه الامثال الفرنسية طائفة في مثل عددها من
الامثال الالمانية ، وهذه هي :

سفينة وتدها من الذهب ترسو في كل ميناء
ان لم تكن مطرقة فكن سندانا
الكيس الفارغ لا يقف مستقيما
بطن فارغ أشجع من رأس ملآن
الضرير أقل عشرات من البصير
من بدأ بالالف انتهى الى اليباء
التخمة أقتل من الجوع
طريق الشحاذ لا ضلال فيه

آدم وحواء أكلا التفاحة ، ونحن نطالب بقائمة الحساب
امراتان طيبتان في الدنيا : احدهما ماتت والاخرى
مفقودة !

المرأة التى لا يصحبها احد يصحبها الجميع
يضحك من الندوب من لم يعرف الجراح



وهذه اثني عشر مثلا من كل أمة مشهورة بالفكاهة أو
مشهورة بالجهامة . غير اننا لو جعلناها عشرة أضعافها لما
تخيرت نسبة الموازنة بينها ، ولا خرجنا منها بتفضيل حاسم
لامة على أمة حين نقتبس فكاهة الامم من تجاربها وأمثالها،

فكلها سواء في مزج الجانب المضحك بالجانب الحكيم من تجارب الحياة المتكررة ، ولاشك أن هذه التجارب وهذه التعبيرات عنها أدل على ملكة الفكاهة الشائعة بين بنى الإنسان من الأقوال المتفرقة على ألسنة الآحاد



وهناك مقياس آخر للفكاهة الشائعة بين بنى الإنسان نرجع فيه الى مواسم الفكاهة التى تعرض لجميع الأمم فى حالات متماثلة ، وهى حالات التنفيس عن الحرج أو حالات التمرد والاحتجاج على البدع الشائعة ، ولاسيما البدع التى حان لها أن تزول أو تبدلت دواعيها بتبدل الأحوال وشعوب الصقالبة فى أوربة الشرقية وأوربة الوسطى من الشعوب التى اشتهرت بجهل النكتة وخشونة الفطرة وقلة الفطنة لكل معنى فى القول غير معناه الصريح الذى يفهم على وجه واحد ولا يفهم على وجهين كما يغلب على جميع المضحكات

الا أن هذه الشعوب قد رويت عنها نوادر فى موسم الحرج لا تفضلها من نوعها نوادر الشعوب الغربية فى أمثال هذه المواسم

وهذه متفرقات من تلك النوادر مأخوذة من الصحف أو من مجاميع الفكاهة العالمية التى تصدر من حين الى حين وتتمثل فيها أمزجة الأمم التى تروى تلك النوادر عنها على غير قصد من جامعها :

◆ أرادت إذاعة روسية أن تطلع الفلاحين على أجهزة الإذاعة وأن يشترك كل منهم فى إرسال الحديث الى العالم

بكلمة واحدة لا يزيد عليها ، فلما تقدم الفلاح الاول وسئل أن ينادى بالكلمة الوحيدة صاح بملء فيه : النجدة !

● وطاف مفتش من مفتشى الدعاية بين الفلاحين المتدمرين فقال فى بعض القرى للشاكين من قلة الطعام والكساء :

« ماذا تقولون ؟ أتشكون من أبداع المذاهب الاجتماعية من أجل لقمة وخرقة ، فماذا عساكم قائلين لو رأيتم الافريقيين العراة الذين لا يعرفون الخبز ولا الطعام المطبوخ فى مجاهل القارة السوداء ؟ »

فحك أحد السامعين رأسه وقال :
«أظن يا حضرة الرفيق أن هؤلاء سبقونا الى ابداع المذاهب الاجتماعية » !

◆ وساح تاجر مجرى فى روسيا والأقاليم المجاورة لها فجعل يرسل التذاكر البريدية الى أصحابه كلما نزل بعاصمة من العواصم ، فكتب فى التذكرة الاولى : تحيات من موسكو الحرة ، وكتب فى التذكرة الثانية : تحيات من وارسو الحرة ، وكتب فى التذكرة الثالثة : تحيات من براغ الحرة . ثم صمت شهرا وجاءت الى أصدقائه من باريس تذكرة يقول فيها هذه المرة : تحيات من الحر راينو فتش !
واقترب غريب فى بودابست من جندى الشرطة ليسأله عن الساعة ، فنظر الشرطى الى النوافذ وقال له : « انها الساعة الثامنة وثلاثون دقيقة بالضبط »

فعجب الزائر الغريب وفاتحه بعجبه قائلا : « كيف عرفتها وأنت لم تنظر فى ساعتك ؟ »

قال الشرطى : « هذه النوافذ المغلقة فى هذه اللحظة دليل على ميعاد الاذاعة الاجنبية » !

● واجتمع ثلاثة مساجين فى أحد المعسكرات فقال أولهم همسا : أنا هنا لاننى متهم بمشايعة راداك ، وقال الثانى : أنا هنا لاننى متهم بتأييد راداك ، وقال الثالث : أنا هنا لاننى راداك ! (١)

وقد نقلت عن الالمان فى أيام هتلر حكايات يتداولها الشعب الالمانى من قبيل التمرد والاحتجاج على شدة الحجر أو على البدع الاجتماعية ، ونختار حكاية من كل منها تنبئ عن سائرها

فمن حكايات التمرد على الحجر وسوء الحال أن رجلا ضاقت به الدنيا فعول على الانتحار واشترى حبلا ليشنق نفسه فانقطع الحبل ونجا الرجل من الموت ، لان الحبل « ارساتز » ، او تقليد صناعى . . فاشترى سمما من صيدلية وضاعف المقدار فلم يمت لان السم « ارساتز » اى تقليد صناعى للمواد التى تصنع منها السموم . . واشترى مسدسا واطلقه على نفسه فلم يمت لان المسدس والرصاص كله « ارساتز » لا يميت . . فلما يئس من الموت عدل عن الانتحار ، وأجمع عزيمته على البقاء واحتمال الحياة على علاتها ، وذهب الى مطعم اكل فيه وشرب وافرط فى اكل اللحوم وشرب الجعة تعويضا لما فاتته من متعة الحياة فى اليومين السابقين

(1) Laughter incorporated.



جحا الجائع للفران : ألك كل هذه
الرغفان .. لماذا لا تأكلها يا أحمق !؟

فمات في هذه المرة ، لان الطعام والشراب « ارساتز » !
وشاع بين الفتيات زى الملابس القصيرة التى تكشف
عن الصدور والسواعد والسيقان ، وعاد أحد الأزواج الى
بيته في بعض تلك الايام فاستقبلته زوجته متهلة وقالت
له : أتدرى يا فلان ! انهم يبيعون الفساتين بالتقسيط على
عشرة أقساط ، وقد انتهزت الفرصة واشتريت فستانا
يوفر عليك سداد ثمنه الكبير دفعة واحدة

فنظر الزوج الى امرأته التى كادت أن تبدو أمامه بغير
كساء ، وقال وهو يظهر الموافقة على مضمض :
- اظن ان هذا هو القسط الاول من الفستان !

النوادر القرقوشية

ان الاستعداد لتأليف الفكاهة التى تنفس بها الامم عن
صدورها في أوقات الحرج يكاد يتساوى بين جميع الامم
ومنها - او في مقدمتها - الامم التى لم تشتهر بانكتسة
واشتهرت على تقيض ذلك بأنها تجهلها ولا تحسنها

ونقول أن هذه الامم في مقدمة الامم التى تؤلف النكات في
هذا الغرض لانها في الغالب هى الامم التى تبتلى بالحرج
وتعز عليها حرية القول ، فلا يوجد في العصر الحاضر نظير
لهذه النوادر في الامم التى تملك حرية النقد وتجهر بأرائها
في حكومتها وحكامها ، ولا محل للمقارنة بين الشعوب
الاوربية في هذا الباب من أبواب الفكاهة لانها لا تتساوى
في ظروفه ودواعيه ، وانما تستطيع المقارنة بين النكات
المتقدمة والنكات التى شاعت في مصر على عهد « قره قوش »
ودونها « ابن مماتى » في كتابه المسمى « الفاشوش في حكم

قراقوش « وليست كلها من تأليفه وابتكاره ، بل هي مما
يشيع مجهول المصدر ثم يقاس عليه ويظل في طي الكتمان
الى حين

واحدى هذه النوادر او النكات قد سبق لها نظير في
النوادر التي استشهد بها فرويد وهي نادرة الحداد المحكوم
عليه بالموت

قيل أن غلاما لقره قوش قتل نفسا فحكم عليه بالشنق ،
ثم تشفع لديه الشفعاء وقالوا له : انه حدادك ينعل لك
الفرس ويخدمك ، فان شنقته لم تجد غيره ، فنظر قره قوش
ناحية الباب ووقعت عينه على رجل قفاص فقال : هذا
القفاص لاحاجة بنا اليه ، فاشنقوه في مكان الركبدار ، وهي
وظيفة الغلام الحداد عنده !

وعلى هذا المثال تجرى النوادر «القرقوشية» التي أثبتتها
« ابن مماتي » في كتابه أو تناقلها الرواة على لسان غيره

● ومنها نادرة الرجل الذي أوثقه الناس وحملوه حيا
ليدفنوه وهو يصيح في النعش مستغيثا بقره قوش ، فلما
سمعه قره قوش ترك المشيعين يمضون به وقال له : ويحك!
لا اصدقك وأكذب مائة من ورائك !

● وقيل ان قره قوش نشر قميصه فوق القميص من
الحبل ، فتصدق بالف درهم وقال : لو كنت البسه ساعة
وقوعه لانكسرت

● وقيل أن جنديا نزل في مركب، وكان به فلاح وزوجته
وهي حامل في سبعة أشهر . فصدمها الجندي وأسقط
حملها فأخذ زوجها بتلابيبه وقاده الى قره قوش ، فقضى

على الجندي أن يأخذ الزوجة ويطعمها ويكسوها ولا يعيدها
إلى زوجها إلا وهي حامل في سبعة أشهر !!

● وشكا إليه مدين أنه يجمع دينه ويذهب به إلى صاحب
الدين فلا يجده ، ثم يأتي هذا فيطالبه ويلح عليه وهو خالي
الوفاض لا يملك السداد ، فأمر قره قوش بحبس صاحب
الدين حتى يعرف المدين موضعه متى جمع المال المطلوب
منه ، ولا يضيع الدين على صاحبه بين البحث والتأجيل

◆ وكان لقره قوش باز يصيد به فطارالباز ولم يعد إليه ،
فأمر باغلاق أبواب المدينة ليرجع الباز إليه إذا أغلقت جميع
الابواب !

● وشكا إليه الفلاحون بردا أصاب القطن وأتلفه والتمسوا
منه أن يعفيهم من الضريبة ذلك العام ، فأبى أن يعفيهم لأن
القطن إنما أصيب بالبرد لاهمالهم وقلة درايتهم ، ولوزرعوا
معه صوفا لما أصابه التلف من برد الشتاء !



ومن باب هذه الحكايات عن قره قوش حكايات كثيرة
يتناقلها المصريون عن الحكم التركي في عطر الممالك وبعد
عصرهم إلى أيام الخديو اسماعيل

● ومنها أن حاكما تعود أن يقترض مالا من بعض الصيارفة
ويكتب له وثيقة بها ثم يأمره بابتلاعها إذا جاءه في الموعد
مطالباً بحقه . ولا يزال يقترض ويأبى السداد على هذا
النحو ويضيف الدين الجديد إلى الديون القديمة حتى يشس
الصيرفي من سداد جميع الديون ، فلما استدعى الصيرفي
بعد ذلك جاءه ومعه ورقة شفافة ورجاه أن يكتب الوثيقة

عليها . . . ليسهل عليه ابتلاعها في موعد السداد
● ومنها أن واليا كان يجمع الضرائب ولا يقبل عذرا في
تأخيرها ، ولا يزال يقول لمن يعتذر بقلّة المال :

— ماذا ؟ أليس لديك أربعون ريالاً . . ؟

وعلم القوم من تكرار هذه « الأربعين » أن الرجل يملك
أربعين ريالاً فلا يصدق أن أحدا لا يملكها مثله ، ونقبوا عن
دفائنه حتى عثروا بالثروة المجهولة ، أو المعلومة ، فلم يضرب
الوالي بعدها أحدا يماطل في الضريبة ، وجعل يقول لكل
معتذر :

— من أين لك أربعون ريالاً يامسكين ؟ . . أنا لا أملك ريالاً
واحداً من الأربعين

● ومنها أن واليا كان يصلى في أخريات أيامه ويتبع
الصلاة بالدعاء والنحيب ويسأل الله أن يكفر له ذنوبه لأنه
قتل أربعة

وسمعه زميل له فادهشه أن يستعظم هذا الذنب اليسير
وينحب هذا النحيب من أجل أربعة قتلهم وهم في حسابه
عدد غير كبير ، فقال له كأنه يؤنبه :

— ألم تقتل في حياتك غير أربعة ياأغا ؟

قال : « لا يا صاحبي . . أربعة من الترك ، أما الفلاحون
فلا عداد لهم فيما أذكر » !

وأشباه هذه النوادر لو أحصيت لاجتمع منها مجلدات
تربى على العشرات من أمثال كتاب الفاشوش عن حكم
قره قوش ، وهى جميعا من تأليف أمة مشهورة من قديم
الزمن « بالقفش » والنكتة السريعة ، فاذا قوبلت هذه
النسوار بنوادر الأمم التى لم تشتهر بالفكاهة فى أوربا

الحديثه ، ظهر من المقابلة أن الاستعداد متقارب أو متساو بين جميع الأمم ، وإنما تزيد النكتة المصرية بطابع خاص بها وهو الجمع بين التنفيس عن الحرج وبين وصف الحاكمين بالففلة والبلاهة ، وسبب هذا الفارق أيضا راجع الى الظروف الاجتماعية لا الى طبيعة الضحك في النفس الانسانية ، فان الحاكم الذى تصيبه النكتة المصرية من غير أهل البلد فلاضير من اتهامه بالففلة والبلاهة واعتزاز المحكومين على الحاكمين بالفطنة والدراية ، ولكن هذا الاعتزاز فى أوربا الحديثه يصيب المحكومين كما يصيب الحاكمين لأنهم من عنصر واحد ، فلا حاجة فى النكتة هنا الى أكثر من التنفيس عن الحرج وتمثيل الحجر على الألسنة والأقلام

فكاهات عهود التحول

وأتى من هذه المواسم الفكاهية التى تنفس بها الأمم عن صدورها فكاهة أخرى أعم وأبقى أثرا لأنها تشمل العهود المتحولة فى حضارة واسعة تحيط بأمم كثيرة ، وتأتى هذه الفكاهة فى أوانها حين تؤذن العهود بالتحول لتزعزع أركانها وزوال مقوماتها ، فينبغى لها نابغ ملهم فى فن النقد والفكاهة يجسمها فى « شخصية » مخترعة يجعلها هدفا للسخرية والتسخيف أو يعمد الى شخضية خيالية قائمة يلبسها ذلك الثوب ويودعها بقايا النفاق والتكلف والتقاليد الخاوية التى تتخلف بعد أجيال عدة فى أعقاب العهود الدائلة التى آذنت شمسها بالأفول

من هذه العهود المتحولة عهد الفتك وأشباع البطون والشهوات فى القرن الخامس عشر للميلاد ، وقد تصدى له

الاديب الفرنسى رابليه Rabelais (١٤٩٤ - ١٥٥٣) فمثل ملوكه وابطاله فى شخصيتين خالدين احدهما شخصية جارجنتوا Gargantua الذى يلتهم الآدميين والأنعام نهما ولا يشبع ولا يكف عن الطعام ، والأخرى شخصية بركوشول Picrochole الذى ضربت نفسه العدوان وهانت عليه النفس البشرية يزهقها لقليل من المال أو لنزوة من نزوات الساعة أو لغير شىء غير العتو والطغيان

وليس أدل من اصطحاب هذه المساوىء فى العهود الدائلة من آيات القرآن الكريم فى سورة الفجر حيث تنعى دول التبابعة والفراعنة والجبابرة جميعا فى أمثال هذه العهود :

« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمرود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد قصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك ابلرصاد » الى قوله تعالى : « بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما »

وهذه المفاسد التى جمعتها هذه الآيات هى بعينها مفاسد العهد الذى يمثله جارجنتوا فى النهم ويمثله بركوشول فى الفتك والعدوان ، وكلاهما بعد ذلك باغ نهم على زيادة البغى فى أحدهما وزيادة النهم فى الآخر



ومن العهود المتحولة عهد الفروسية فى القرن السادس عشر بين نبلاء الأسبان على الخصوص ، فان هذا العهد قد شاخ وشاه حتى بطلت فيه النخوة والحماسة فأصبحت

أكذوبة خاوية يتعلق المخدوعون بظواهرها أو الجامدون على بقاياها ، وقد تصدى لهذا العهد كاتب أسباني من طراز رابليه هو سرفانتيز Cervantes صاحب كتاب دون كيشوت الذى تضمن من أمثال العرب وكلماتهم المأثورة ما يكاد يسلكه فى عداد الكتب العربية ، ولم يكن ذلك عبثا أو لغوا بل كان من تمام التعبير عن العهد الآفل لأنه وافق شيوع التقاليد العربية بين الأسبان وأمم القارة الغربية

ويعاصر هذه العهود أو يسبقها بقليل عهد الألاعيب « الشريرة » الذى فشا بين الولايات الألمانية على أيام النبلاء الذين قيل فيهم انهم نصف أمراء ونصف قطاع طريق ، وتمثلت الألاعيب هذا العهد فى شخصية القروى اولنسيجل Eulenspiegel الذى كان كالمسخ المشوه فى تصوره لأولئك العابثين المحتالين الأشرار ، ويقال انه عاش فى برنزيك وان توماس مورنر Murner (١٤٧٥ - ١٥٣٠) الذى جمع نوادره بعد ذيوها نحو قرن من الزمان ، ولم تثبت نسبة الكتاب اليه ولكن ثبت ذيوع النوادر قبل ذلك بغير خلاف

ثم جاء الكاتب البلجيكي شارل دى كوستيه Charles de Coster (١٨٢٧ - ١٨٧٩) فاستعار هذه الشخصية وأودعها روحا فلمنية مرحة كادت ان تجعلها نموذجا للطبيعة الفلمنية فى سذاجتها التى آذنت بالتحول عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين

وخاتمة المطاف فى هذه المواسم الفكاهية كتاب « أعاجيب البارون منشهاوزن » الذى ألفه الكاتب الألمانى رودلف أريك راسب Raspe وأدار حوادثه أو نوادره على شخصية واقعية عاش صاحبها فى القرن السابع عشر وعاد بعد خدمته

فى الجىش الروسى يصدع الاسماع بأخبار البطولة التى يروىها
عن نفسه وخوارق الشجاعة والدهاء التى امتاز بها فى
وقائع الحرب والسفارة بين الملوك والامراء ، ومنهم أمراء
المشرق فى الآستانة والقاهرة

تلك الشخصية الواقعية هى شخصية كارل فردريك
منشهاوزن (١٧٢٠ - ١٧٩٧) نموذج المفاخر المدعاة بين
عصر السيف وعصر البندقية والمدفع ، واحدى أعاجيبه انه
نسى النار التى يشعل بها البارود فأوقد زناد البندقية بضربة
على عينه أطارت منها الشرر فانطلق الرصاص . . . واحدى
هذه الأعاجيب أنه أراد الخروج من القلعة المحصورة فركب
القذيفة التى أطلقت عليها فعادت به أدراجها الى حيث أراد ،
وكانت أعاجيب منشهاوزن هذا خاتمة العهد الذى راجت
فيه أباطيل البطولة بعد عصر الفروسية وقبل عصر السلاح
الحديث ، وراجت فيه على الجملة أخبار السياحات والرحلات
مما يصدق العقل او لا يقبل التصديق

وهذه فكاهات ظهرت لمناسبات متشابهة بين فرنسا
واسبانيا وألمانيا وبلجيكا وتقبلتها الأمم من المغربيين والمشرقيين
حيث تداولتها أيدي القراء بمختلف اللغات ، ومن هذه الأمم
من اشتهرت بالفكاهة ومنها من اشتهرت بجهلها وبطء
الالتفات اليها ، ولا يسع الناقد عند المفاضلة أن يرجح النكتة
فى احداها على النكتة فى سواها ، فربما كان بعض النكات فى
أعاجيب منشهاوزن أبرع من نكات دون كيشوت ، وربما
كانت النكتة الأسبانية أحيانا أبرع من النكتة الألمانية ،
وعامتها من نسق واحد وطبقة واحدة تؤدى رسالتها فى
مناسباتها وتسجل الحقيقة التى أسفرت عنها المقابلة بين

الفكاهات القومية ودلت على ان الضحك - بالمنطق - مزية
انسانية توجد بالقوة كما توجد بالفعل حيث يوجد الانسان ،
وان اختلافها انما هو اختلاف بين الظروف والبيئات قبل
ان يكون اختلافا بين الطبائع والأصول



على أن طبائع الانسان العامة لا تمحو الفوارق بين المجتمعات
في مواقعها المتباينة ، ولا تمحو الفوارق بين المجتمع الواحد
في الأزمنة المختلفة والأحوال المتناقضة ، وليس من الطبيعي
أن تكون الأمة الواحدة كالأمة الكادحة ، أو الأمة الغنية كالأمة
الفقيرة ، أو الأمة التي طال عهدها بالحضارة ومؤسساتها
كالأمة التي تحضرت بعد وحشة أو مرت بها الحضارة ناشئة
متقطعة ، ولا تتشابه في الجد ولا الفكاهة أمة تمرست بالمظالم
والشدائد وأمة لم تمرس بها الا عرضا في الآونة بعد الأخرى
فمهما تتفق طبائع الانسان فستبقى بعد ذلك بقية
للصبغة القومية في الجد والفكاهة ، وفي العلم والعمل ، وفي
التفكير والذوق ، وفي الضرورات والكماليات

فوارق الأمم في الفكاهة

ونحن في هذه الرسالة نجمل القول في اصول الفكاهة
لنستطرد منها الى فكاهة جحا أو الفكاهة المنسوبة اليه في
الأمم التي عرفته وتمثلت بحكاياته ، وهي الأمة العربية
والأمة الفارسية ، والأمة التركية . وكادت هذه الأمة - أي
الأمة التركية - أن تستأثر به في معظم نوادره حتى قيل أن
جحا المشهور اليوم انما هو جحا جديد من مخلوقات البديهة
التركية تنقطع الصلة بينه وبين جحا القديم الذي عرفه

العرب في أمثالهم ورجع به التاريخ الى صدر الاسلام ، فلا يجمع بينهما غير التسمية باسم واحد

وأيا كان منشأه من الأمة التركية فهناك « جحا » تنسب اليه الحكايات في اللغة العربية واللغة الفارسية ، فاذا عينا بفوارق الأمم في الفكاهة والمضحكات فليس من غرضنا في هذه الرسالة ان نستقصى الفوارق في جميع الأمم ولا حاجة بنا الى أكثر من تمييز الفوارق في خصائص الفكاهة بين السليقة العربية والسليقة الفارسية والسليقة التركية ، فربما أعانت هذه الفوارق على اسناد الحكايات الى كل أمة من هذه الأمم حسب سليقتها الغالبة عليها ، ولا يكون هذا الاسناد بعد كل محاولة في ميسورنا الآن الا على سبيل الترجيح والتقريب دون الجزم والتوكيد . ونحن في هذا كمن يقول ان فلانا عربي لأنه أسمر فيقول شيئاً يستحق ان يقال لأنه لا يستحق ان يهمل ، ثم لا يجاوز هذا الحد الى توكيد النسبة مع احتمال وجود البشرة السمراء او المسمرة بين الشعوب الشقراء ، واحتمال وجود البشرة البيضاء بين العرب وغيرهم من الشعوب السمراء

وعلى هذا النهج من التغليب والترجيح نستطيع ان نميز سليقة الأمة في عامة شؤونها ثم غير السليقة التي تنظر منها في معارض الفكاهة ، لأن الصورة الفكاهية نسخة من الصورة المحسوسة مبالغ فيها على مثال المبالغة في هذا الضرب من التصوير المشهور في اللغات الأوروبية باسم الكاريكاتور . . . وقد وجد هذا الكاريكاتور بالتعبير اللغوي في جميع الأمم قبل ان يوجد بالخطوط والرسوم

فمن الوصف الطامق لسليقة الأمة العربية ان نقول انها

أمة شعرية منطقية ، ومن الوصف الصادق لسليقة الأمة
الفارسية ان نقول انها أمة صوفية دبلوماسية ، ومن الوصف
الصادق لسليقة الأمة التركية ان نقول انها أمة عملية
واقعية

والى أين تنتهى المبالغة « الكاريكاتورية » بالخيال والمنطق؟
تنتهى الى الوهم والقياس مع الفارق أو مع الفوارق
الكثيرة

أما المبالغة الكاريكاتورية فى السليقة الصوفية فقد تنتهى
الى المحال والمحاولة ، وأما هذه المبالغة فى السليقة العملية
الواقعية فقد تنتهى الى تحصيل الحاصل والخذلة بما هو
مفهوم مستغن عن التعريف

وقد أعطانا الشاعر التركى المستعرب – ابن سودون
اليشبغاوى من أدباء القرن التاسع بمصر والشام – مثلاً
للسليقة التركية لانظير له فيما نعلم من نظم شعراء العرب
والترك ولا شعراء الأمم الغربية ، لأن أولئك الشعراء يعطوننا
المثل فنأخذه من طريق التحليل والاستنتاج ، ولكن ابن
سودون يعطينا المثل على غير قصد منه بمنظوماته التى
تعدو تحصيل الحاصل ويرسم لنا « الكاريكاتور » بيده
ولا يدع لنا ان نرسمه ونستوحى ملامحه من خلال الألفاظ
ومعانيها

ونكتفى هنا بقصيدتين من شعره الذى أراد به الاضحاك
بمحاكاة ادعاء المعرفة الذين لايزيدون فى حكمتهم على تعريف
المعروف

واحدى القصيدتين على قافية الالف المقصورة وهى :

إذا ما الفتى فى الناس بالعقل قد سما
تيقن أن الأرض من فوقها السما
وأن السما من تحتها الأرض لم تنزل
وبينهما أشياء أن ظهرت ترى
وانى سسأبدى بعض ما قد علمته
لتعلم أنى من ذوى العلم والحجى
فمن ذاك أن الناس من نسل آدم
ومنهم أبو سودون أيضا ، وان قضى
وان أبى زوج لأمى ، واننى
أنا ابنها والناس هم يعرفون ذا
وكم عجب عندى بمصر وغيرها
فمصر بها نيل على الطين قد جرى
وفى نيلها من نام بالليل بله
وليست تبل الشمس من نام بالضحى
بها الفجر قبل الشمس يظهر دائما
بها الظهر قبل العصر : قبل بلا مرا
وبالشام اقوام اذا ما رأيتهم
ترى ظهر كل منهم وهو من ورا
بها البدر حال القيم يخفى ضياؤه
بها الشمس حال الصحو يبدو لها ضيا
ويسخن فيها الماء فى الصيف دائما
ويبرد فيها الماء فى زمن الشتاء
وفى الصين صينى اذا ما طرقتة
يطن كتلىنى طرقت سسوا سسوا

بها يضحك الانسـان اوقات فرحه
ويبكي زمان الحزن فيها اذا ابتلى
وفيهـا رجال هم خلاف نسائهم
لأنهم تبسـدو بأوجههم لحي
والقصيدة الأخرى البائية التى يقول فيها :
عجب عجب عجب عجب عجب
بقر تمشى ولهـا ذنب
ولهـا فى بزبزهـا لبن
يبدو للناس اذا حلبوا
لاتغضب يوما ان شتمت
والناس اذا شتموا غضبوا
من اعجب ما فى مصر يرى
الكـرم يرى فيه رطب
اوسيم بهـا البرسيم كذا
فى الجيزة قد زرع القصب
زهر الكتان مع البلسـا
ن همـا لوان ولا كذب
كيهـود فى دير خلطوا
بنصارى حركهم طسرب
وقناطر ام الخمس بهـا
ماء فى الحفـرة ينسرب
والمركب مع ما قد وسقت
فى البحر بطرف تنسحب
والخيمة قال الناس اذا
نصبت فالجبل لهـا طنـب

البيض اذا جاعسوا اكلوا
والسمر اذا عطشوا شربوا
النساقة لا منقار لها
والوزة ليس لها قتب
الوز يبيض بثقبته
وينام عليه فينثقب
والوز الفقس بأرض بلقس
كذا في المقس له زغب
لا بد لهذا من سبب
حزر . فزر . ما السبب ؟



وستمر بنا فيما يلي ألوان من النوادر المنسوبة الى جحا
يحسب بعضها من نوادر تحصيل الحاصل ، ويحسب
بعضها من نوادر الوهم أو القياس مع الفارق ، وبعضها من
نوادر المحال والمغالطة . ويساعدنا هذا التقسيم على الرجوع
بها الى مصادرها مع التحفظ والتماس القرائن الأخرى من
التاريخ والمناسبات والشواهد النفسية أو الاجتماعية
ونبدأ قبل البدء بعرض النوادر وتقسيمها فنقول انه
تقريب لانرجو أن نبليغ به مبلغ الجزم والتوكيد ، ولكننا لانرى
من أمانة البحث ان يهمل أو يصرف عنه النظر ، فلعله بعد
كل ما يقال عن أحكامه « التقريرية » أصدق الموازين الميسرة
لنا في هذا المبحث وما جرى مجراه من الروايات المشاعة بلا
اسناد تبلغ مبلغ الجزم والتوكيد

جھا .. ونوادرہ

۵ - جھا

جحا . . . غير واحد

شيء واحد ثابت كل الثبوت في أمر جحا
ذلك الشيء الثابت — قطعاً — أنه لم يكن جحا واحداً
ولا يمكن أن يكونه ، لأن النوادر التي تنسب الى جحا
لا تصدر من شخص واحد ، ولا تزال دواعي اليقين باستحالة
هذه النسبة واضحة في كل قرينة وكل رواية يجوز الاعتماد
عليها في تحرى الوقائع ومن تنسب اليه

يستحيل أن تصدر هذه النوادر عن شخص واحد لأن
بعضها يتحدث عن أناس في صدر الاسلام ، وبعضها يتحدث
عن أناس في عصر المنصور العباسي أو عصر تيمور لنك أو
مابعد من العصور بأجيال

ويستحيل أن تصدر عن شخص واحد لاختلاف
الشخصيات التي تصورها في مجموعها ، فمنها ما يكون
التفصيل فيه من جحا ، ومنها ما يكون فيه جحا صاحب
الذكاء النادر والطبع الساخر الذي يكشف عن الغفلة ويتندر
على البلاهة ، ومن هذه الشخصيات من تتمثل فيه الحماسة
بغير مراء ، ومنها من يتحامق ويبدو في كلامه وتمثيله انه
يتكلف ما يعمل وما يقول استهزاء منه بمن يدعون الحكمة
والذكاء

ويستحيل أن تصدر هذه النوادر عن شخصية واحدة
لتباعد البيئات التي تروى عنها سواء في الإمكانة أو العادات

والأخلاق ، فقد يروى بعضها عن فارس ويروى بعضها عن بغداد أو الحجاز أو آسيا الصغرى أو غيرها من البلدان الشرقية

بل ربما قيل عن جحا أنه نصر الدين التركى وقيل عنه أنه أبو الفصن العربى الفزارى ، وقيل عنه أنه من النوكى الهاكعين كما يقال عنه أنه من أصحاب الحالات والكرامات من المستترين بالولاية وهم يجهرون بالهذر والبلاهة ويستحيل أن تصدر هذه النوادر عن « جحا » وحده كائنا ما كان ، لأنها تنسب — بعينها — الى المجانين من أمثال هبنقة وبهلول أو الى الأذكىاء من أمثال أبى نواس وأبى العيناء

ويزاد على هذه الاحالات جميعا ان طبيعة الفكاهة تختلف بين تحصيل الحاصل والقياس مع الفارق والمحاولة والمحال ، مما يجوز ان يتفق عرضا فى نادرة أو قليل من النوادر ، ولكنه لا يتفق فى العشرات والمئات

ونحن قد نقرأ عن جحا فى كتاب واحد فنفهم انه شخص موجود أو قابل للوجود ، لأنه متناسق الأخبار مطبوع فى تفكيره وتعبيره على غرار واحد . ثم نقرأ عنه فى كتاب آخر فنرى صاحب الكتاب مضطرا الى تسويغ نوادره المتناقضة بإسنادها الى المخلقين والمنتحلين ، أو بافتراء المفترين على « جحا » للنكاية والتشهير

يقول الميدانى صاحب كتاب الأمثال : « هو رجل من فزارة كان يكنى أبا الفصن ، ومن حمقه أن عيسى بن موسى الهاشمى مر به وهو يحفر بظهر الكوفة موضعا فقال له : مالك يا أبا الفصن ؟ قال : انى قد دفنت بهذه الصحراء

دراهم ولست اهتدى الى مكانها . فقال عيسى : كان ينبغي
أن تجعل عليها علامة . قال : قد فعلت . قال : ماذا ؟ قال :
سحابة في السماء كانت تظلها واست أرى العلامة . . .

« ومن حمقه أيضا أنه خرج من منزله يوما بفلس فعثر
في دهليز منزله بقتيل فضجر به وجره الى بئر منزله فألقاه
فيها . غير أن أباه أخرجه وغيبه وخنق كبشا حتى قتله
وألقاه في البئر . ثم ان أهل القتيل طافوا في سكة الكوفة
يبحثون عنه فتلقاهم جحا فقال : في دارنا رجل مقتول ،
فانظروا أهو صاحبكم ؟ فعدلوا الى منزله وأنزلوه في البئر ،
فلما رأى الكبش ناداهم وقال : ياهؤلاء ! هل كان لصاحبكم
قرن ؟ فضحكوا ومروا

« ومن حمقه أن أبا مسلم صاحب الدولة لما ورد الكوفة
قال لمن حوله : أيكم يعرف جحا فيدعوه الى . فقال يقطين :
انا . . . ودعاه ، فلما دخل لم يكن في المجلس غير أبي مسلم
ويقطين ، فقال : يا يقطين ! أيكما أبو مسلم ؟ »
ثم يقول الميداني بعد ذلك : « وجحا اسم لا ينصرف لأنه
معدول من جاح مثل عمر من عامر . يقال جحا يجحو
جحوا اذا رمى ، ويقال : حيا الله جحولك أي وجهك »



وجحا هنا ، كما وصفه الميداني ، شخضية مفهومة
متناسقة ، لعل الخبر الذي جاء عن أبيه في خلال الكلام عنه
يفسر بالوراثه مافيه من خلة الحماقة . لأن جحا لم يصنع
شيئا يزيد الشبهة في أمر القتيل بنقله من الدهليز الى البئر ،
وأباه لم يصنع شيئا يزيل الشبهة بوضع الكبش في مكانه ،

وكان كل منهما مندهة عما صنع لولا حماقة في الأب
وفتاه

أو لعل الخبر عن اشتهار اسم جحا حتى سمع به أبو
مسلم يفسر لنا وضع الروايات عنه بين الفرس أو اعتباره
بينهم علما على البلاهة والفهاة يسندون اليه ماشابه نوادره
من الفكاهات الفارسية ، فليس في خبر جحا هنا غرابة بما
نسب اليه أو نسب الى غيره ، ولك أن تقبل هذا الخبر دون
أن تحتاج بعده الى توفيق أو تأويل

ولكنك تقرا عن جحا في غير كتاب الأمثال فلا ترى كتابا
واحدا يستغنى عن شيء من التوفيق والتأويل ، لغرابة
الأخبار التي ترامت عنه وتلقفها الرواة فحاروا كيف
يضعونها في موضعها بين أخبارهم ومن تروى عنهم تلك
الأخبار

ومن الاطالة على غير طائل في غرضنا من هذه الرسالة
أن نحيط بكل ما وصف به جحا في كتب الأدب العربي فان
المحصل منه كله أنه تناقض لا يستقر على قرار ، ولكننا
نجتزئ بما كتبه ابن الجوزي اذ يقول في أخبار الحمقى
والمغفلين انه - أي جحا - « روى عنه ما يدل على فطنة
وذكاء ، الا ان الغالب عليه التغفيل ، وقد قيل ان بعض من
كان يعاديه وضع له حكايات . وعن مكى بن ابراهيم : رأيت
جحا رجلا كيسا ظريفا ، وهذا الذي يقال عنه مكذوب عليه ،
وكان له جيران يمازحهم ويمازحونه فوضعوا عليه »

وهكذا يسمع عن الرجل ما يدل على ذكاء وما يدل على
تغفيل ويوفقون بين الذكاء والتغفيل فيحسبون ان نوادر
التغفيل من وضع المفترين عليه ، وغير ابن الجوزي اناس

يحبسون أنه من أصحاب الحالات والكرامات يتكلم ولا ينبغي أن يؤخذ عليه كلامه بظاهره لأنه يعتمد فيه إخفاء الأسرار الإلهية بهذه المضحكات والخزعات ، وقد حسب به بعضهم من التابعين رواية الحديث ثم شكوا في حقيقة اسمه كما شكوا في حقيقة مسماه

وأما بعد ظهور جحا التركي ، الملقب بخوجة نصر الدين ، فالحكايات عنه تنسب إلى رجل واحد وهي مما يمكن أن ينسب إلى عشرة متباعدين في الزمان والمكان والعقل والمزاج ، وبعض هذه الحكايات متأخر إلى ما بعد اختراع الساعات التي تحمل في الجيب وبعضها متقدم إلى أيام الصحابة والتابعين

نوادير له ولغيره

ومما لا ريب فيه - قطعا - أن رجلا واحدا لا يمكن أن تصدر عنه جميع هذه الحكايات ولو كانت متناسقة متساوقة تدل على عقل واحد ومزاج واحد وتتحدث عن فترة واحدة وبيئة واحدة . فأننا إذا فرضنا وجود هذا الرجل وجب ألا يكون له عمل إلا أن يأتي بتلك النوادر والأضاحيك ووجب ألا يكون لعشرائه وأصحابه عمل غير النقل عنه وإثبات هذه الأحاديث المنقولة ، وهو مالم يحدث في حياة الهداة الأعلام الذين تنقل عنهم الإشارات فضلا عن الكلمات

فالمعجب أن تكون حكايات جحا من رجل واحد ، ولكنه لا عجب على الإطلاق في توارده هذه الحكايات وتلاقيها من أبعد المصادر ، ومهما يخطر على بالنا من غرابة ذلك فالواقع يزيل كل غرابة فيه ويرينا أن هذا الفيض من الحكايات -

وما هو أغرب منه - يتلاقى من أقاصى أوربا الى أقاصى
أفريقيا الى أقاصى القارة الآسيوية على امتدادها
ومثال ذلك قصة تروى عن جحا وعن أبى نواس وعن
رأبليه الفرنسى الذى تقدمت الإشارة إليه ، وفحواها أن
تاجرا بخيلا رأى طارقا فقيرا يتبلغ بالخبز القفار على رائحة
شوائه أو طبيخه فطالبه بثمن هذه الرائحة ، وحرار الفقير فى
أمره حتى أنقذه خلال المشكلات بحل من قبيل دعواه ،
لأنه رن أمامه قطعا من الدراهم وقال له خذ رنين هذه
الدراهم ثمننا لرائحة شوائك

ومن الذى روى هذه النادرة عن أبى نواس ؟
لم يروها كتاب بغداد أو دمشق أو القاهرة ، بل رواها
الكاتب الانجليزى انجرام Ingram فى كتابه عن أبى نواس
وأساطيره كما سمعها باللغة السواحلية واللغة العربية فى
أفريقية الشرقية ، وهذه ترجمة القصة كما نقلناها فى كتابنا
عن أبى نواس . قال انجرام ما ترجمته بحرفه على وجه
التقريب :

« ان تاجرا ذبح معزة ومر به مسكين فجلس الى جانب
القدر لعله يستسيغ الخبز القفار باستنشاق رائحتها ، ثم
لقى التاجر فقال له : انك أيها السيد قد أحسنت الى أمس
اذ منحتنى رائحة معزتك فاصطنعت بها هنيئا . فأخذ
التاجر بتلابيبه وهو يقول له : الآن علمت كيف ضاعت النكهة
من لحمها . فقد اختلستها انت اذن ولا ندرى . وساقه الى
هارون الرشيد - وقد كان شديد المحاباة للتجار - فحكم
على المسكين بتفريمه اثنتى عشرة روية يأخذها التاجر ثمن
لنكهة ذبيحته ، وخرج المسكين يبكى لأنه لا يملك فلسا من

هذه الغرامة ، فوجد ابا نواس فى الطريق وعطف عليه أبو نواس حيث علم منه سبب بكائه ، ووعدته أن يساعده ، ثم أعطاه اثنتى عشرة روبية وأوصاه أن يقدو بها الى السلطان ولا يؤديها له حتى يحضر هو مجلسه . ثم كان القد فجاء الى المجلس ورأى المسكين يعد الدراهم فأخذها منه وورنها على الأرض ، وسأل التاجر : أسمعتم رنينها ؟ قال : نعم . ومد يده الى الدراهم يريد أن يقبضها ، فردده أبو نواس وصاح به : حسبك . لقد وصل اليك الثمن رنيناً برائحة . فإذا كان المسكين قد شبع من رائحة طعامك فأنت حرى أن تملأ يدك من رنين دراهمه ، وترك الروبيات للمسكين ، وانصرف الى داره »

هذه نادرة تروى فى سواحل افريقية الشرقية ، ويتحدثون فيها بالروبيات وهم يذكرون تقود بغداد ، وهذه النادرة بشىء من التصرف فيها تروى فى قصص جحا وتروى فى قصص رابليه

ومن النوادر مايتوارد فى خرافات ايسوب وحكايات ألف ليلة ، كحكاية الحمار والثور مع صاحب الزرع ، وقد جاءت فى أوائل ألف ليلة بالعبرة الآتية :

« اعلمى يابنتى أنه كان لبعض التجار أموال ومواش وكان له زوجة وأولاد وكان الله تعالى أعطاه معرفة الحيوانات والطير وكان مسكن ذلك التاجر الارياف وكان عنده فى داره حمار وثور فأتى يوما الثور الى مكان الحمار فوجده مكنوسا مرشوشا وفى معلقه شعر مغربل وهو راقد مستريح ، وفى بعض الأوقات يركبه صاحبه حاجة تعرض له ويرجع على حاله ، فلما كان فى بعض الأيام سمع التاجر الثور وهو يقول

للحمار هنيئاً لك ذلك : انا تعبان وانت مستريح تأكل الشعير مغربلاً ويخدمونك وفي بعض الأوقات يركبك صاحبك ويرجع وانا دائماً للحرث والطحن ، فقال له الحمار : اذا خرجت الى الغيط ووضعوا على رقبتك الناف فارقـد ولا تقم واو ضربوك وامتنع عن الأكل والشرب يوما أو يومين أو ثلاثة فانك تستريح من التعب والجهد . وكان التاجر يسمع كلامهما فلما جاء السواق الى الثور يعلفه أكل منه شيئاً يسيراً فأصبح السواق يأخذ الثور الى الحرث فوجده ضعيفاً فقال له التاجر : خذ الحمار وحرثه مكانه اليوم ، فلما رجع آخر النهار شكره الثور على تفضلاته حيث أراحه من التعب ذلك اليوم فلم يرد عليه الحمار جواباً وندم أشد الندامة ، فلما كان ثانياً يوم جاء المزارع وأخذ الحمار وحرثه الى آخر النهار . فلم يرجع الحمار الا مسلوخ الرقبة شديد الضعف . فتأمله الثور وشكره وحمده ، فقال الحمار : اعلم انى لك ناصح . وقد سمعت صاحبنا يقول : ان لم يقم الثور من موضعه فأعطوه للجزار ليذبحه ويعمل جلده قطعاً وانا خائف عليك ونصحتك والسلام . فلما سمع الثور كلام الحمار شكره وقال : فى غد أسرح معهم . ثم ان الثور أكل علفه بتمامه حتى لحس المذود بلسانه . فلما جاء النهار خرج التاجر وزوجته الى دار البقر وجلسا ، فجاء السواق وأخذ الثور وخرج . فلما رأى الثور صاحبه حرك ذنبه ... وبرطع . فضحك التاجر حتى استلقى على قفاه «

هذه القطعة جاءت متصلة بغيرها فى ألف ليلة وليلة لمناسبة تجر وراءها مناسبة اخرى على الأسلوب المطرد فى

تسلسل الروايات بألف ليلة وليلة ، ولكنها جاءت في خرافات
ايسوب منفردة ، على اختلاف في المغزى ، بالعبارة التالية :
« كانت معزة وحمار في حوزة صاحب واحد ، وكانت
المعزة تغار من الحمار لأنه كان وافر الطعام يكفيه ويفيض
منه ، فقالت له : ان حياتك نصب دائم ، تدير الطاحون
وتحمل الأثقال ، فأنصح لك بأن تجمع يوما وتسقط في حفرة
تستريح بعدها . فعمل الحمار بنصيحة المعزة وأصيبت
رجله اصابة بالغة من جراء سقطته ، وارسل صاحبه في
طلب البيطار ليسأله رأيه ، فوصف البيطار للحمار مرقا من
طحال معزة وقال انه دواء صالح لعلاج دائه . فذبخوا المعزة
لمداواة الحمار

« والمغزى من هذه الحكاية ان من نصب فخا لغيره جر
البلاء على نفسه »

وفي خرافات ايسوب نوادر أخرى يقل فيها التحوير
ويتقارب فيها المغزى ، مما تناقله المشارقة عن جحا وأمثاله،
ومنها ما لم يرد في الخرافات القديمة كأنه أضيف إليها بعد
عصر ايسوب او بعد العصر المفروض له ولخرافاته ، ومنها
ما هو قديم منقول عن الحكمة الموضوعة على السنة الحيوان،
وهي شائعة في الشرق من الصين والهند الى البلاد العربية
على اتساعها وتباعد اقطارها

ولا نرانا في حاجة الى انتظار عصر المطبعة او عصر التأليف
وتداول الكتب بين الأمم لتعليل هذا التوارد بين النوادر
والحكايات في المشرق والمغرب ، وبين اقارات الثلاث من
العراق الى الاندلس وفرنسا الى افريقية الشرقية . فان
انتقال هذه النوادر على طرق الرحلات والقوافل أسبق

جدا من كل تأليف أو طباعة ، وقد كان الرحالون يطوفون البلاد من أقصى العالم المعمور الى أقصاه ولا سمر لهم في الرحلة أشهى ولا أدل على حنكة السائح وطول عهده بالترداد على البلاد من أحاديث الحكمة والفكاهة وأطوار الناس وغرائب الاقطار

خذها شرودا في البلاد مقيمة

سمرا لدى سمر وزاد مسافر

فاذا سمعت القصة في بغداد لم يكن بعيدا عليها أن تسمع في بلاد الشمال من أوربا أو بلاد الجنوب من أفريقيا مع قوافل الرحالين والسياح الذين يسلمون بها في سهراتهم ويتنافسون عليها بين المأثور عن أقوامهم وأوطانهم ، وليس العجيب أن تسرى هذه النوادر هذا السريان المستفيض بين مرامى السياحة ومطارح السفر ، بل العجيب أن يكون للرحالين والسياح حديث غيرها في لياليهم الطوال كلما فرغوا من أحاديث العمل وما اليه



ولا ينتظر منا بعد هذه الفوضى الجحوية أن نبت في نسبة النوادر كلها أو بعضها الى صاحبها ، لأن صاحبها غير واحد ، ولأن أصحابها المتعددين ضروب من الخلق تصلح النوادر لأحدها كما تصلح للآخر ، ولكننا نستطيع أن نقسمها على ثقة الى أقسامها الواضحة من حيث الدلالة أو من حيث « الدور » الذي تؤديه ، ومنها ما يمثل الذكاء والحكمة ، وما يمثل البلاهة والحماقة ، وما يمثل التباله والتحامق أو التغابي ، ولا يقع اللبس كثيرا بين هذه الأقسام أو بين هذه الأدوار

وسنختار فيما يلي عشرين نادرة في كل قسم من هذه
الاقسام أو كل دور من هذه الادوار ، ثم نتبعها ببعض
القرائن التي تساعدنا على نسبتها الى أقوامها مع التحفظ
والتوسع في هذه النسبة الجرافية ، وأما النسبة الى الآحاد
من أصحاب اسم « جحا » أو غير أصحابه فنعرض لقرائنها
الممكنة بعد ذلك على قدر المستطاع



٦٠ نادرة

من نواذر الذكاء والحكمة
والحماسة والبلاهة
والتعاطف والتبالة ...

نوادير الذكاء والحكمة

١ - آل خبره

كان جحا يتولى القضاء ، فجاءه رجل يستغيث به لانه وجد طنبوره المسروق ، مع بائع في السوق ، واراد ان يأخذه منه فادعاه السارق لنفسه وانكره ، فأرسل جحا في طلب انبائع المتهم ، وسأل صاحب الطنبور عن شهوده ، فجاءه بشاهدين ، أحدهما صاحب حانة ، والآخر ماجن متبطل بغير عمل

وشهد الشاهدان بانهما يعرفان الطنبور ويعرفان انه للمدعى ، وعلامته ان فيه كسرا بأعلاه ورباطا بأسفله ، وليست مفاتيحه محكمة الشد والحركة وطابقت العلامة وصف الطنبور ، ولكن السارق طلب تزكية الشاهدين وقال ان شهادة الخمار والماجن لا تقبل في الشريعة

قال جحا : « نعم . واما حين تكون الدعوى على طنبور فالخمار والماجن اصلح الشهود » !

٢ - من راقب الناس

كان لجحا ولد يعصيه كلما امره بعمل ، ويقول لابييه : « وماذا يقول الناس عنا ان علمناه ؟ »

واراد جحا ان يلقيه درسا ينفعه ، ويعلمه ان رضى الناس غاية لا تدرك . فركب حماره وامر ابنه ان يتبعه ، ولم يمض غير خطوات حتى مر ببعض النسوة فشتمنه وقلن له : « ايها الرجل ! اما فى قلبك رحمة ؟ تركب انت وتدع الصبى الضعيف يعدو وراءك » ؟

فنزل جحا عن الحمار ، وامر ابنه بركوبه ، ومضى مسافة غير بعيدة ، ثم مر بجماعة من الشيوخ يستشرقون ، فدق احداهم كفا بكف ، ولفتهم الى هذا الرجل الاحمق ، وهوى يقول ويعيد : « لمثل هذا فسد الابناء ، وتعلموا عقوق الآباء ... ايها الرجل ! تمشى وانت شيخ ، وتدع الدابة لهذا الولد ، وتطمع بعد ذلك ان تعلمه الادب والحياء » ؟ قال جحا لولده : « اسمعت ؟ تعال اذن نركب الحمار معا » ...

وما هى الا لحظة ، حتى مر بهما جماعة من اصدقاء الحيوان صاحوا بهما : « اما تتقيان الله فى هذا الحيوان الهزيل ؟ اتركبانه معا ، وكل منكما يزن من اللحم والشحم ما يزيد على وزن الحمار » ؟

قال جحا لولده : « الآن نمشى معا ونرسل الحمار امامنا ، لنأمن سوء القالة من النساء والشيوخ واصدقاء الحيوان » وما هى الا لحظة اخرى حتى مر بهما طائفة من « اولاد البلد » الخبيثاء ، فجعلوا يعبثون بهما ويقولون لهما : « والله ما يحق لهذا الحمار الا ان يركبكما او تحملاه وتريحاه من وعشاء الطريق » !

فمال جحا الى شجرة ، واخذ منها فرعاً متيناً وربط فيه الحمار ، وحمل الفرع من طرف ووضع الطرف الآخر على

كتف ولده . فاذا البلد كله وراء هذا الركب العجيب ، واذا بالشرطى يفض هذا الزحام ليسوقهما الى البيمارستان قال جحا لابنه فى طريقهما مع الشرطى : « هذه يا بنى عاقبة من يستمع الى القال والقليل ، ولا بعمل عملا الا ابتغى به مرضاة الناس ! »

٣ - احصاء المنافقين والرقعاء

كان جحا دائم الشكوى من اهل بلده ، يقول لكل من لقيه منهم او من الغرباء عنهم انهم كلهم منافقون رقعاء . ولامه هذا وراجعته ذاك ، فعمد الى اقناع اللائمين والمنافضين بأسلوبه فى الاقناع : أسلوب المشاهدة والعيان ، فخلع باب الدار وحمله على ظهره وقال لاول مناقض له فى تشهيره بأهل البلد : « تعال معى واحسب ! » وعند منعطف الطريق صاح به صائح من اهل البلد وهو يضحك : « ما هذا الذى تحمله على ظهرك يا جحا ؟ » قال جحا لصاحبه : « هذا واحد : اتراه لا يعرف الباب الطويل العريض الذى يسأل عنه ؟ »

٤ - العصا تحمل الارجل

حمل جحا اوزة مشوية الى الامير ، وغلبه الجوع ورائحة الشواء فى الطريق ، فأكل احدى رجليها ثم وضعها بين يدي الامير ، فسأله عن الرجل الناقصة اين ذهبت ؟ قال : « لم تذهب الى مكان ، وانما الاوز كله برجل واحدة فى هذا البلد » ، ثم تقدم بالامير الى نافذة القصر وأشار الى

سرب من الاوز قائم على قدم واحدة كعادته في وقت الراحة،
فلما الامير بجندى من حرسه وأمره أن يشد على سرب
الاوز بعصاه ، وما كاد يفعل حتى أسرع الاوز يعدو هنا
وهناك على قدميه

قال الامير : « ارايت ؟ ان اوز هذا البلد ايضا خلق بقدمين
والم يخلق بقدم واحدة » !
قال جحا : « مهلا ايها الامير . . . لو شد احد على انسان
بهذه العصا لجرى على اربع » !

٥ - تماطل الله وتستدين

جلس جحا يبيع زيتونه فساومته امرأة ، واستكثرت
على الزيتون الثمن الذى طلبه ، وقأنت له : « اذا اردت ان
تبيعنى بالثمن الذى أخبرتك به مؤجلا ، فأنت تعرف زوجى
وهو فلان بن فلان » !

وناولها جحا زيتونة ، لتذوقها وتعرف جودة الصنف
وحقه من ائتمن ، فاعتذرت بانها صائمة لانها مرضت من
سنة وافطرت في شهر رمضان !

قال جحا : « الآن بطل الخلاف ، لا مساومة ولا تأجيل . . .
اتراك تماطلين الله سنة ولا تماطيننى الى يوم القيامة » ؟

٦ - تيمور فى الآخرة

وسأله تيمورلنك الطاغية المشهور : « اين ترى يكون
مشواى فى الآخرة ياخوجة نصر الدين ؟ »

فقال جحا ولم يتردد : « واين ترضى ان تكون ، ان لم
تكن مع جنكيز خان والاسكندر وفرعون والنمرود » ؟

٧ - ثمن طافية

وسأله تيمورلنك ، وقد أخذه معه الى الحمام ، وخلع
ملابسه الا مئزرا يديره على وسطه : « بكم تشترينى الآن ،
لو عرضت عليك فى السوق ياخوجة نصر الدين » ؟
قال : « بخمسين ديناراً »

قال تيمور : « ويحك ! ان ثمن هذا المئزر خمسون ديناراً »
قال جحاً : « وهذا هو الثمن الذى حسبته » !

٨ - الحساب المفضوم

واراد تيمور أن يصادر أموال الحاكم بمدينة « آق شهر » ،
فاتهمه باختلاس أموال الديوان ، وأبرا الحاكم بذمته بالحساب
المكتوب على دفاتر الديوان الفلاظ . . . فأخذها تيمور من
يده ومزقها وأمره بابتلاعها ، ثم أحال حكم المدينة الى
الخوجة نصر الدين

وحان موعد الحساب فجاءه الخوجة نصر الدين بجلود
مطوية نشرها فوجد فى طيها رقائق من الخبز مكتوباً عليها
الحساب بالحلوى

قال تيمور : « ما هذا » ؟

قال الخوجة : « هذا الذى يحتمله جوفى يا سيدى ، لاننى
شيخ فان ولست فتى ضليعا كحاكمك القديم »

٩ - أيهما أحب اليه

وكانت له زوجتان ، فجلس معهما يتسامر ، وطاب لهما
ن تخرجاه ، فسألتاه : أيهما أحب اليه
قال : « انتما معا حبيبتان الى قلبى » !

قائتا : « لا ، انك لا تستطيع ان تضحك منا بهذه المراوغة ،
وامامك هذه البركة نخيرك في اغراق احدانا بها ، فمن منا
تلقى بها في الماء الآن ؟ »

وحار في امره هنيهة ، ثم التفت الى الزوجة الاولى وقال
لها : « اذكر انك تعلمت السباحة قديما يا عزيزتى ! »

١٠ - المكان الامين في الجنازة

وسئل : « أيهما افضل ؟ المسير خلف الجنازة ، أو المسير
امامها ؟ »

قال : « لاتكن في النعش ، وسر حيث تشاء »

١١ - والقبلة الامينة

وسئل : « وماذا يستقبل السابح اذا نزل في الماء » ؟
فقال : « يستقبل المكان الذى عليه ملابسه »

١٢ - الفضول

وثلقه بعض معارفه في الطريق فقال له : « انى رايت
انساعة رسولا يحمل مائدة حافلة بالطعام الفاخر »
قال جحا : « وماذا يعنينى ؟ »
قال صاحبه : « انهم يحملونه الى بيتك »
قال : « وماذا يعنيك ؟ »

١٣ - التقوى المهلكة

وسكن في دار ، فشكا الى صاحبها انه يسمع قرقة في
سقفها

قال صاحب الدار : « لا تخف . انه يسبح الله »
قال : « وهذا الذى اخشاه ، تدركه رقة فيسجد علينا ! »

١٤ - « حدود الابوة »

وسئل جحا : « هل يولد للرجل بعد بلوغ الثنتين ؟ »
قال : « يجوز » !
قيل : « وبعد بلوغ الثمانين ؟ »
قال : « يجوز »
قيل : « وبعد بلوغ المائة ؟ »
قال : « نعم . . . اذا كان له جار في العشرين » !

١٥ - العمامة القارئة

وعرض عليه رجل كتابا بالفارسية ليقراه له فتعلل
برداءة الخط ، ورد له الكتاب
قال صاحب الكتاب محنقا : « وعلام اذن تضع هذه
العمامة على رأسك ، كأنها الرحي ؟ »
فخلع الشيخ العمامة ، ووضعها جانبا ، وقال له :
« دونك العمامة فاسألها ، فانها صاحبة العلم الذي تبغيه » !

١٦ - تحويل الجزاء

وصفع رجل « جحا » على قفاه بعرض الطريق يريد أن
يسخر منه ، فأخذ جحا بتلايبه إلى القاضي ولم يقبل
منه اعتذاره بالخطأ فيه ، لانه ظنه من اصدقائه الذين
يمازحونه بمثل هذا المزاح الثقيل
وكان الرجل العايب من معارف القاضي فاحب ان ينجيه
من العقاب ، وحكم لجحا بان يصفعه كما صفعه او يتقبل
منه عشرة دراهم على سبيل الجزاء او التعويض

وطمع جحا في الدراهم فسأل القاضي المدعى عليه : «امعك الدراهم ؟»

وفطن صاحبنا لفرض القاضي فقال : « كلا ، ولكنني احضرها بعد قليل من البيت »

واذن له القاضي بالانصراف لاحضار الدراهم ، فذهب ولم يعد . وطال الانتظار على جحا ، فأدرك حيلة القاضي واقترب منه كأنه يهمس في أذنه ، ثم صفعه صفقة عنيفة ، وقال له وهو ينصرف : « اذا عاد اليك الرجل بالدراهم ، فخذها حوالة مني اليك ! »

١٧ - دعوى بدليها

وادعى الولاية ، فسأله ائسامعون عن كرامته ، فقال : « اريدون مني كرامة اعظم من علمي بما في قلوبكم جميعا ؟ » قالوا : « وما في قلوبنا ؟ » قال : « كلكم تقولون في قلوبكم انني كذاب ! »

١٨ - من يلد يموت

واستعار حلة كبيرة من جاره ، ثم اعادها اليه وفيها حلة صغيرة . فسأله جاره : « وما هذه ؟ » قال : « هذه بنتها ، ولدتها عندنا » فتقبلها جاره ولم ينكر عليه ثم استعارها مرة اخرى وثم يردّها ، فلما سأله عنها ، قال : « البقية في حياتك ، انها ماتت عندنا في النفاس ... رحمها الله »

قال صاحب الحلة متعجبا : « ايموت النحاس ؟ » قال جحا : « من يلد يموت ، وقد يموت في النفاس »

١٩ - ثمن الضرورة

وعطش في طريقه ، وهو بمنقطع من الماء في الصحراء ، فمر به اعرابي يحمل قربة ، عرض عليه جحا ان يبيعها اياه فلم يقبل باقل من خمسة دراهم ، فاشتراها جحا ، وجلس يأكل من طعام دسم كان معه ، واستضافه الاعرابي فاعطاه من الطعام ما اشبعه واطماه ، فسأله شربة من القربة... فلم يقبل جحا باقل من خمسة دراهم ... وباع الشربة بثمن القربة !

٢٠ - ثمن الحمار !

وضاع حماره ، فاقسم لبييعنه ان وجده بدينار واحد ثم وجده وندم على حلفه ، ولم يشأ ان يحنث في قسمه ، فاحتال عليه ليبر باليمين ، ويحفظ على نفسه ثمن الحمار ، وعرض الحمار في السوق وقد ربط الى عنقه حذاء قديما ، فجعل ينادى عليه : « الحمار بدينار والحذاء بعشرة دنانير ، ولا يباعان على انفراد ! »

٢١ - الكرام قليل

امره الوالى ان يعد مجانين البلد ، فقال : « بل اعد لك العقلاء . ومن عداهم كثيرون لا يحصرون »

٢٢ - يقضى على القاضى

جاء الشرطى برجلين الى مجلس القضاء ، وجحا عند القاضى يحدثه في بعض شئونه ، فعرض الشرطى قضية الرجلين ، وقال انه وجد في الطريق بين بيتيهما اقذارا ممنوعة

و ادعى كل منهما ان جاره مطالب بازالتها ، لانه هو الذى
وضعها فى عرض الطريق
واراد القاضى ان يعث بجحا ليسخر منه ، ويفضح دعواه ،
لانه كان يدعى العلم ويتصدى للافشاء ، فاحال عليه القضية ،
وسأله ان يقضى فيها بالحق بين الرجلين
فقبل جحا مقترح القاضى ، وسأل الشرطى : « هل كانت
الاقذار اقرب الى دار هذا او دار ذاك » ؟
قال الشرطى : « انها كانت فى الوسط بينهما »
قال جحا : « انما يزيلها اذن مولانا القاضى ، لانها فى
الطريق العام ، ومولانا القاضى هو المسئول عن المدينة » !



نوادير الحماقة والبلاهة

١ - على قدر الوضوء

توضأ جحاً ، ولم يكفه الماء لاتمام وضوئه ، وبقيت رجله اليسرى بغير وضوء ، فقام يصلى برجله اليمنى ولا يضع اليسرى على الارض ..

فسأله : « ما بالك تقف على رجل واحدة ؟ »
قال : « الاخرى غير متوضئة ! »

٢ - انا مكرر

راى رجلاً فى الطريق لا يعرفه ، فتبسّط معه فى الحديث ، ورفع الكلفة بعد عبارة أو عبارتين
فعجب الرجل وسأله : « ألك بى معرفة فترفع الكلفة هكذا بينى وبينك ؟ »

قال : « بل حسبتك أنا .. لان ثيابك كثيابى ومشيتك كمشيتى ، ولكنك لست أنا كما علمت الآن ! »

٣ - ترويح زوجة

وحاول أن يبيع بقرة له فأعياه بيعها ، فرآه دلال فى السوق ، تكفل له ببيعها اذا أسلمه اياها واعطاه الجمل المعلوم ، وقبل جحاً ، فأخذ الدلال ينادى على البقرة ، ويذكر منافعها ومحاسنها ، ومنها انها حبل فى ستة أشهر

ثم جاء الخواطب الى داره يخطبون بنته ويتطلعون الى محاسنها ، فتذكر الصفة التي روجت سوق البقرة ، وقال للخواطب :

«هى كما ترون وزيادة.. انها حبلى فى شهرها السادس»

٤ - يريح كما يراح

ورأوه يركب حمارا ويحمل خرجه على كتفه ، فضحكوا منه ورموه بالعبث والدعابة ، وقال له قائل منهم : « الا تعرف كيف تضع الخرج تحتك أو امامك ولا ترهق نفسك بحمله وانت راكب ؟ »

قال : « عدل من الله ، أراضى الحمار من حمل نفسى بأن أريحه من حمل خرجه ! »

٥ - أكبر خوخة

وكان فى منديله فاكهة ، فسأله بعضهم : « ماهذا الذى فى منديلك يا جحا ؟ »

قال : « لا اقول لكم ، ولكنى اعطيكم اكبر خوخة اذا عرفتموه »

قال السائل : « انه خوخ ! »

فانطلق قائلا : « أى ملعون أنبأكم بأمره وهو مصرور ! »

٦ - احجية محلولة

ورأى بعضهم أن يمتحنه فقال له : « ان عرفت ما فى منديلى اعطيتك واحدة منه تكفى لعمل عجة مليحة »

قال : « صفه لى ولا تذكر اسمه »

قال صاحبه : « انه أبيض وفى وسطه صفار »

قال جحا : « الآن عرفته ، انه لفت حشوتموه جزرا ! »

٧ - الحمد لله

وضاع حماره فطفق يصيح وهو يسأل الناس عنه :
« ضاع الحمار والحمد لله »
قيل له : « فهل تحمد الله على ضياعه ؟ »
قال : « نعم ، لو أننى كنت أركبه لضعت معه ولم أجد
نفسى »

٨ - أربعون يوما من رمضان

وكان من عادته إذا صام يوما فى رمضان أن يلقى بحصاة
فى جرة ، ورأته ابنته فأثقت فى الجرة ملء كفيها من الحصى ،
وهى تظن انها تساعده
وسأله الجيران يوما : « كم بقى من رمضان ؟ »
قال : « أما مابقى فلا أعرفه ، ولكنى عليم بما مضى من
أيامه »

ثم عد الحصى ، فزاد على مائة وعشرين حصاة
قال بينه وبين نفسه : « لو أنبأتهم بهذا العدد لسخروا
منى ، ولكنى أنزل به الى أربعين »
ثم خرج لهم يقول : « مضى من الشهر أربعون يوما على
التقريب »
فتضحكوا منه ، وتضحك هو منهم وهو يقول : « انه
شهر طويل على الصائمين ، فماذا تصنعون لو أنبأتكم بأمدد
الصحيح ؟ »

٩ - الشمس والقمر

وسأله : « أيهما أنفع : الشمس أو القمر ؟ »

فلم يتمهل واجابهم بيقين : « انه القمر ولا وراء »
فسألوه : « ولم ؟ »

قال : « لان الشمس تطلع في النهار حين يستغنى عنها
الناس ، واما القمر فلا يطلع الا في الظلام على حين الحاجة
اليه »

١٠ - البحث في النور

ورأوه يبحث في أرض لاشيء فيها ، فسألوه : « عم
تبحث ؟ »

قال : « خاتم سقط مني »

قالوا : « وهل سقط هنا وليس في الأرض أثر للخواتم ؟ »

قال : « بل سقط في الزقاق الذي هناك »

قالوا : « وما بالك لا تبحث عنه حيث سقط ؟ »

قال : « واى جدوى للبحث في الظلام ؟ »

١١ - حمار ممسوخ

اشترى حمارا ، واقتاده بزمام طويل ، فتغفله لصان ،
ذهب أحدهما بالحمار ، وربط الآخر نفسه في مكانه

والتفت جحا فرأى انسانا في مكان الحمار

فاستعاذ بالله ، وسأله : « أين الحمار ؟ »

قال : « انا الحمار ، أعادنى الله انسانا ببركتك كما كنت

بعد أن مسخت حمارا للدعاء والدتى على »

فبارك له جحا ، وأطلقه وهو يوصيه بطاعة أمه ويحذره

العودة الى اغصابها ، وجر الغضب من الله عليه بدعائها

ثم عاد الى السوق بعد برهة ليشتري حمارا غير ذلك

الانسان المسوخ ، فرأى الحمار بعينه في يد الدلال ، فمال على أذنه وهمس فيها قائلاً : « لن تنفعك بركتي بعد مسختين ، ولن أشتريك وأنت بهذا العصيان ! »

١٢ - نصف بنصف وتتم الدار

وكان يشارك على دار ، فباع نصفها الذي يملكه ليشتري بثلثه النصف الآخر ، وتخلص له الدار بغير شريك !

١٣ - دابة على رمح

ونام في الخلاء ومعه عكاز طويل ركزه ووضع صرة النقود على رأسه لكيلا ينالها أحد
فراه لص وعرف غفلته ، فأخذ النقود ووضع في موضعها روث دابة

وتيقظ جحاً ، فوجد الروث في مكان الصرة ، فلم يعجب لسرقة النقود ولكنه عجب للدابة التي استطاعت أن تصعد على عكاز لتصنع به ذلك الصنيع

١٤ - مكافأة معقولة

وحمل الى تيمور رمانات باكورة ظهرت في غير أوانها ، فرضى عنه تيمور وأرضاه
ثم طمع في جائزة أخرى ، فجمع رؤوساً من اللفت ليهدئها اليه ، فقال له بعض جيرانه أن اللفت لا يصلح لاهداء الملوك ، فاذهب اليه بنخبة من التين فهو الطف وأحلى
واستكبر تيمور أن يهدى اليه التين وهو يملأ الاسواق ، وأحب أن يكف جحاً عن طمعه ، فأمر الجنيد أن يقذفوه باتين واحدة بعد واحدة

فوقف جحا يتلقى الضربات على رأسه وعلى وجهه وعلى
عينيه وأنفه وهو يضحك ويدعو للجار الذي أسدى إليه
النصيحة الصادقة

واشتد عجب تيمور من ضحكه ودعائه ، فأمر الجند
أن يمسكوا عن ضربه ، ليسأله عن سر ذلك الضحك وذلك
الدعاء

قال : « انه سر عظيم ، او كان اللفت في موضع هذا
التين ، لتهشم رأسي وانفقات عيناى ! »

١٥ - بروج نامية

وسألوه : « ما طالع نجمك ؟ »
قال : « ولدت والشمس في برج التيس »
قالوا : « لا يوجد في السماء برج يسمى برج التيس ،
ولكنك تعنى برج الجدى »
قال : « افمن مولدى الى اليوم لا يصبح الجدى تيسا ؟ »

١٦ - كيف يعرف يمينه ؟

وانطفأت شمعة في داره فطلبت منه زوجته أن يناولها
اياها من يمينه
قال : « يا حمقاء ! وكيف اعرف يمينى من شمالى في هذا
الظلام ؟ »

١٧ - ادب مع التلاميذ

وركب بغلته مستديرا رأسها فسأله تلاميذه : « لماذا
لا تعتدل في ركوبك يامولانا ؟ »

قال : « هذا هو الاعتدال ، أدير ظهري لرأس البغلة ولا أديره لرؤوس الأدميين ! »

١٨ - يسمع صوته من بعيد

ورأوه يوما وهو يغنى ويجرى ، فسألوه : « ما بالك تغنى وتجرى ؟ »

قال : « أحب ان اسمع صوتى من بعيد ! »

١٩ - لماذا ينتشرون

سألوه : « لماذا ينتشر الناس في جوانب الارض ، ولماذا يذهبون ذات اليمين وذات اليسار كل صباح ؟ »
فتأمل قليلا ثم قال : « لو ذهبوا الى ناحية واحدة ، لمالت بهم الارض وانكفأت بهم في هاوية ليس لها قرار ! »

٢٠ - لماذا لا تأكله

ومر بفرن تتصاعد منه رائحة الخبز الساخن ، وهو يشتهي ، ولا يقدر عليه لخلو يده ، فاتجه الى الفرن وسأله :
« الك كل هذه الرغفان ؟ » قال : « نعم » قال : « ولماذا لا تأكلها يا أحمق ؟ »

نوادير التحامق والتبالة

وهذه نوادر منسوبة الى جحا تتوسط بين الحكمة البينة والحماقة البينة ، لا تقتصر في اختيارها على النوادر التى يصطنع فيها الحماقة ويتكلفها كأنه يمثلها ويستعيرها ، ولكننا نختار من هذه النوادر كما نختار من النوادر التى لا تحسب بطبيعتها من الحكمة ولا تحسب من الحماقة ولكنها

تتوسط بينهما وتغلب عليها هذه مرة وتلك مرة أخرى ،
وكلها قد نسبت الى جحا كما نسبت بموضوعها أو بمغزاها
الى ذوى السمعة الفكاهية من أمثاله

١ - أحق وأحقان

رآه الطحان يأخذ من قفف الناس ويضع فى قفته ،
فصاح به : « ما هذا يا جحا ؟ »
قال جحا : « لا تؤاخذنى فأننى رجل أحق »
قال الطحان : « لو كنت أحق لاخذت من قفتك ووضعت
فى قفف الناس ! »
قال : « ويحك ! أنا أحق واحد ، ولو صنعت كما تقول
لكنت أحقين ! »

٢ - مالا يغتفر

ولقيه بعضهم يلهو فقال له : « أنت هنا تلهو وامراتك
تقطع احداهما الاخرى ؟ »
ولم يشأن يدع مجلسه فسأل الرجل متضاحكا : « أ قالت
احداهما للأخرى شيئا يتعلق بالعمر ؟ »
قال : « كلا »
قال : « اذن لاداعى للوساطة ، فانها مشكلة سليمة » ؟

٣ - مرق مرق المرق

جاءه ضيف ريفى ومعه أرنب فأكرمه وشيعه كما
استقبله بالحفاوة والتحية
ثم مضى أسبوع وجاءه ضيف من بلدة صاحب الارنب
وقال له انه جاره القريب

ثم مضى أسبوع أو أسبوعان وجاءه من تلك البلدة جيران
كثيرة يزعمون جميعا أنهم جيران الرجل في داره أو حقله
أو دار أحد من أهله

فأجلسهم جميعا على السماط وجاءهم بطست كبير فيه
ماء غال ، وأوما إليهم قائلا : « تفضلوا فكلوا من مرق مرق
الارنب ، يا جيران جيران صاحب الارنب المشؤم ! »

٤ - بلبل ولا كالبلابل

وصعد على شجرة يقطف من ثمرها فحضر صاحب
البستان وفاجأه وهو على تلك الحال
قال صاحب البستان : « من أنت يا هذا ؟ »
قال جحا : « أنا بلبل أتنقل على الاغصان »
قال صاحب البستان : « أسمعنا اذن من غنائك أيها
البلبل العجيب »

فتغنى جحا بصوت لا يسمع ولا يشبه تغريد البلبل ،
وقال صاحب البستان : « ما هذا بتغريد بلابل »
قال جحا : « هاتها واسمعها ، ألم تقل اننى بلبل عجيب ؟ »

٥ - مصيبة أكبر من مصيبة

ونظر تيمور الى وجهه في المرآة بعد أن تنعم وتعود
معيشة القصور فانقبض لمنظره القبيح ، ولمح وزيره انقباضه
فأخذ يواسيه على عادة الوزراء بما يسرى عنه ، وقال له
فيما قال : « مثلك أيها الخاقان الاعظم لا يأسى على جمال
الوجوه وقد أعطاك الله بسطة في الجسم وبسطة في القوة
وبسطة في الثروة والسلطان ، وانما يأسى على جمال الوجوه



اللى لجحا : من انت يا هذا ؟
جحا : انا صاحب هذه الدار التى نقلتني اليها .. !!

النساء وأشباه النساء من الرجال «
فانبسطت أسارير الطاغية ، وابتسم راضيا عما قاله
الوزير ، ولكنه التفت الى الخوجة نصر الدين فرآه يبكي
ويستخرط في البكاء
قال له : « ماخطبك ياخوجة نطر الدين ؟ انا صاحب
المصيبة تسليت ، وأنت تأبى أن تتسلى ؟ »
قال جحا : « معذرة يامولاى ، ان مصيبتى أكبر من
مصيبتك أضعافا مضاعفة . أنت نظرت الى وجهك مرة
فانقبضت . فماذا أصنع أنا الذى أنظر اليك بالليل والنهار
مرات ؟ »

٦ - نقل

دخل لص منزله وحمل بعض أثاثه ، فحمل هو بقية
الأثاث حتى دخل وراء اللص الى داره
ونظر اللص وراءه فرآه يدخل الدار ، فسأله : « من
أنت يا هذا ؟ »
قال : « أنا صاحب هذه الدار التى نقلتنا إليها !.. »

٧ - كلهم محقون

اختصم رجلان من أصدقائه وجاءه أحدهما يعرض عليه
شكواه ، فقال له : « أنك محق فى شكواك أيها الصديق »
وجاءه الصديق الثانى فى اليوم التالى فعرض عليه
شكواه فقال له كما قال لخصمه : « أنت محق أيها
الصديق »

وكانت امراته تسمع القصتين فسخرت منه قائلة :

« يالك من منافق ، خصمان مختلفان ، وكلاهما محق في شكواه ؟! »

قال : « ولماذا تغضبين ؟ أنت محقة أيضا فيما تقولين ؟ »

٨ - تنقلب الدنيا

وأراد أن يتزوج ، فبنى دارا تتسع له ولاهله ، وطلب من النجار أن يجعل خشب السقوف على أرض الحجرات ، ويجعل خشب الأرض على السقوف ، فراجع النجار دهشا ، ولم يفهم ما يعنيه

قال جحا : « أما علمت يا هذا أن المرأة إذا دخلت مكانا جعلت عاليه سافله ؟ اقلب هذا المكان الآن يعتدل بعد الزواج ! »

٩ - خروف على عيبه

وارسله أبوه يشتري له رأس خروف مشوى بأقل من ثمنه ، فأكل في الطريق لسانه ، ثم راودته نفسه فأكل عينيه ، ثم أكل أذنيه ، ثم أكل شواته (جلدة رأسه) ومخه ، وذهب به الى أبيه جمجمة نخرة

فجعل أبوه يقلبها ويسأل : « اين مخه » ؟

فيقول جحا : « كان مجنونا بغير عقل »

فيسأله : « واين عيناه » ؟

فيقول جحا : « كان أعمى »

ويسأله : « واين شواته » ؟

فيقول جحا : « كان أقرع »

ويسأله : « اين لسانه » ؟

فيقول : « كان أخرس أعجم »

قال ابوه : « فاذهب رده الى صاحبه »
قال : « انما اشتريته بقليل الثمن على البراءة من كل
عيب »

(١٠) العقاب قبل الذنب

وناول بنته الصغيرة جرة تملأها ، وحذرهما ان تكسرها ،
وانذرهما لئن كسرتها ليصفعنها هكذا ، واردف الانذار على
الاثر بصفعة قوية ابكتها

فنظر اليه عابر طريق ولامه على ضرب البنت الصغيرة
في غير جريرة ، وقال له : « اتضربها قبل ان تكسرها ؟ »
قال : « يا احمق . انما اضربها لتعرف الم العقاب
فتحذره ، وأما بعد كسر الجرة فما الفائدة من ضربها ؟ »

(١١) العائل الاكبر

سأله الامير : « كم عيالك ؟ »
قال : « سبعة ! »

فاعطاه لكل من عياله مائة درهم ، وخرج جحا ، ثم عاد
اليه على الاثر وهو يقول : « نسيت واحدا ايها الامير انفق
من مالى عليه كما انفق على هؤلاء »

قال الامير : « من يكون ياترى ؟ »
قال : « انا اكبر عيالى ايها الامير »

(١٢) ياكلون بالضرب

وذهب الى قونية ، فاعترضه في طريقه دكان حلوى
تعرض فيه اصناف الفطائر والفاكهة المسكرة صابحة شهية

فأهوى عليها يأكل منها بلا استئذان ، وأهوى صاحب الدكان عليه بالعصا يريد أن يحول بينه وبين حلواه ، فتغابى جحا وراح يثنى عليه ويثنى على أهل قونية ، ولم يزل يقول : « يالكم يا أهل قونية من قوم كرام ، تطعمون الناس بالعصا والكرباج ! »

(١٣) ماذا يفعل بالحذاء

ولبس حذاء جديدا ، فنظر اليه بعض الشطار وارانوا ان يحتالوا عليه ليسرقوه ، فسألوه : « اتستطيع ان تصعد على هذه الشجرة وتأتى بشيء من ثمرها » ؟ قال : « نعم ، فكم جعلتم » ؟

فاعطوه ما تيسر لهم وانتظروا ان يخلع حذاءه ليصعد ، فلم يفعل ، بل صعد على الشجرة ومعه حذاءه تحت ابطه قالوا : « وماذا تصنع بالحذاء على الشجرة » ؟ قال : « اذا القيت اليكم الثمر فماذا يعنيكم من الحذاء ؟ اما انا فلعلى اجد لى طريق سفر من اعلى الشجرة فأذهب ولا اعود اليكم »

(١٤) لولاك ياكى

وذهب الى وليمة بثياب العمل ، فطرده الخدم من الباب فعاد اليهم بثيابه المدخسة ، وعليه حلة من الحلل التى يخلعها عليه الامراء ، فأكرموه وتقدموه الى مكان المائدة ، ففمس كفه فى الصحان واحدة بعد واحدة ، وطفق يقول له كأنه يناجيه : « كل ، كل ياكى ، فلولاك ما وصلت الى هذا الطعام ! »

(١٥) ماذا أضاعت ؟

وقيل له : ان امرأتك أضاعت عقلها ، فأطرق يتأمل ، وقام الى داره يبحث فيها
قالوا : « ماذا تصنع يا جحا ؟ »

قال : « انكم تقولون انها أضاعت شيئاً ، ولن يكون ذلك الشئ عقلها ، فأننى لا اعرف لها عقلاً تضعه ! »

(١٦) بالدور

وقيل له : ان امرأتك تتردد على البيوت وتطيل المكث فيها
قال : « غير صحيح ، ولو كان صحيحاً لوصلت الى دارنا »

(١٧) اصدق من الحمار

ورجاء بعض جيرانه ان يعيره حماره ، فاعتذر له بذهابه الى الغيط
ثم نهق الحمار وهو يكلمه ، فعاتبه الجار قائلاً : « اليس هذا حمارك ينهق في الدار ، وانت تزعم انه ذهب الى الغيط ؟ »

قال : « سبحان الله ، تكذبنى وتصدق الحمار » ؟

(١٨) يصلح لكل شئ

وسأل امرأته ، وقد جاءها برطل من اللحم : « لماذا يصلح هذا » ؟

قالت : « يصلح لكل شئ ! »

قال : « فاطبخى عليه اذن كل شئ ! »

(١٩) قسمة الله

واختاره قوم للقسمة بينهم فسألهم : « أترضون قسمة الله أو قسمة عبيده ؟ »
قالوا : « بل قسمة الله »
فاعطى احدى درهمين ، واعطى الثانى دينارين ، واعطى الثالث لحافا ، واعطى الرابع سريرا عليه حشية ، واستبقى سائر التركة بين يديه
قالوا : « ويلك ! أهذه قسمة الله ؟ »
قال : « انظروا حولكم تفهموا قسمة الله وحكمة الله »

(٢٠) منوم موصوف

وطلبت منه امراته ان يعود اليها فى طريقه من المسجد بدواء منوم لطفلها الذى يؤرقهما بالبكاء والصياح فعاد وليس معه غير الكتاب الذى يقرأه
قالت : « العلك نسيت الدواء » ؟
قال : « معاذ الله ، هذا هو الدواء ، وقد جربته اليوم فى الكبار فناموا جميعا ، فجربيه أنت فى الصغار »

موازنین غنبر محکمہ

موازين غير محكمة

هذه النوادر الستون التي تقدمت في الفصل السابق تصور لنا اقسام النوادر التي تنسب الى جحا ، وقد تنسب الى غيره ، ومنها ما ينسب عن حكمة ظاهرة وما ينسب عن بلاهة ظاهرة ، وما ينسب عن بلاهة مستترة بين الحكمة والبلاهة

وتندر بينها النادرة التي لم تنسب الى مصادر متعددة من الحكماء والحمقى والمحمقين ، وبعضها يروى عن اناس في الغرب الحديث كالنادرة التي تروى عن سن الولادة في الرجل ، والنادرة التي تروى عن الشجار بين المرأتين ، فان الاولى تروى عن نابليون وطيبه والثانية تروى عن جولدسميث الكاتب الانجليزى المشهور الذى قيل فيه انه احمق الناس الا حين يتناول القلم فهو اذن من احكم الناس

قيل ان نابليون سأل طبيبه حين كان مشغولا بأمر ولاية العهد : « هل يولد للرجل فى الستين ؟ وهل يولد له فى السبعين ، وهل يولد له فى الثمانين » ؟ فكان جواب الطبيب عن ابن الستين نعم ، وعن ابن السبعين ، نعم فى الندرة ، وعن ابن الثمانين انه يولد له اذا كان له جار فى العشرين وقيل ان امرأة جولدسميث وأخته تشاجرتا وهو غائب عن المنزل ، فادركه احد جيرانه وانبأه بأمره هذه المشاجرة ، فسأله : « هل قالت احدهما للآخرى انت

شوهاء » ؟ قال الجار : « كلا » . قال : « اذن هى مشاجرة
مأمونة »

وقد سبقت الاشارة الى نوادر متشابهة بين الفكاهة
المصرية والفكاهة فى المجر وأوربة الوسطى ، ولا يصعب
تعليل ذلك بتوارد الخواطر فى الجواب البسيط على سؤال
واحد او سؤالين ، وقد يعلل الكثير منه باطلاع الغربيين
على النوادر التى ترجمت لهم من العربية فى القرون الوسطى
وقد يكون التشابه من تلك النوادر اضافة جديدة فى الكتب
المطبوعة لم تتداولها السنة الناس قبل ذلك

الا ان النوادر التى لا شك فى مصدرها الشرقى كثيرة
بين النوادر المنسوبة الى جحا وامثاله ، وهى على الجملة
نوادر الزوجتين والقضاة الدينيين والضيافات التقليدية
ونوادر الصيام والصلاة والفتاوى وما هو من قبيلها
فهذه لا شك فى مصدرها الشرقى من تخوم الصين الى
آسيا الصغرى ووادى النيل ، فاين هو معيار النسبة
الصحيحة بين كل هؤلاء الاقوام والامصار والاقطار ؟

فى النسبة التاريخية بعض المعايير النافعة على غير حسم
ويقين . لان النادرة قد تقع فى القرن الثانى او الثالث
وتصحف بعد ذلك لتوائم القرن الذى نقلت اليه ، وما لم
تكن مكتوبة فى مرجع معروف التاريخ فلا سبيل الى الجزم
بنسبتها الى زمن من الازمنة على وجه اليقين

والمعيار الآخر « تقريبى » كالمعيار التاريخى لا ينتهى بنا
الى الحسم ولا يسلم من اللبس والانتباه ، وذلك معيار
الخصائص القومية التى نميزها بالظن ونقارب بالظن بينها
وبين النوادر التى توأمتها ولا توأمت غيرها

وقد اسلفنا ان طبيعة الفرس تغلب عليها الصوفية والمحاولة الدبلوماسية ، وان طبيعة الترك يغلب عليها تحصيل الحاصل مبالغة في الواقع ، وان طبيعة العرب يغلب عليها الخيال والقياس المنطقي ، وتبالغ بها الفكاهة فتجنح بها الى الوهم والقياس مع الفارق الواحد او الفوارق الكثيرة

افلا يعقل ان العبقرية التي اخرجت لنا القول بتسخير الجسد والاعضاء لحالات الروح تخرج لنا مع الفكاهة - والمحاولة الدبلوماسية - قصة الاوزة التي يخلق لها الخوف رجلين والرجل الذي يخلق له الخوف اربعاً اذا عدا وراءه من يشد عليه بالعصا ؟

جائز اوراقج ، وهذا غاية ما هناك ، ومثلها نادرة الولد العاق الذي مسخته دعوة أمه حماراً ثم عاد الى الأدمية ببركة الشيخ

وكذلك يعقل ان تحصيل الحاصل يخرج لنا في بلاد الترك قصة المرأة التي يقال لزوجها انها تدور في البيوت ، فيأخذ بالواقع - المفرط - ويقول : لو صح ذلك لدخلت الى بيتنا ومثل هذه القصة قصة الرجل الذي يصطنع التعمية ويعلن انه يعطى اكبر « خوخة » في المنديل لمن يخبره بما فيه ، ومثلها قصة الرجل الذي يضربونه لانه يأكل الحلوى فيحمدهم لانهم يكرهونه على الاكل بالسوط والعصا

كذلك يعقل ان القياس مع الفارق يخرج لنا نادرة الرجل الذي باع نصف الدار ليشتري النصف الآخر وتخلص له الدار بنصفها . فما كل شراء يجمع للشاري بين النصفين ولكنه قياس مع الفارق لشراء على شراء

والحماقة التي ادخلت في روع صاحبها ان السحابة علامة



جاء النبيه لجماره : الى الامام يا احمق!

صاحبة للحفرة التى تحفر تحتها - هى بعينها التى ترى على
الرمح روثة فلا تفهم منها الا ان الدابة صعدت على الرمح .
ثم لا يبقى عليها الا البحث فى طريق الصعود

هذه معايير تقريبية لاناخذ بها ولا نهملها ، لان اهمالها
اهمال لدراسة واسعة من دراسات العصر قابلة للمزيد من
التوسع والاحكام



وقد تعمدنا أن نختار بين النوادر السابقة طائفة من أشهر
النوادر بين العامة والخاصة فى البلاد العربية ، لأنها اشتهرت
حتى اصبحت علما على جحا دون غيره بين جمهرة الناس
التي تتناقل النوادر والاحاجى من فم الى فم ولا ترجع
الى الكتب والاوراق ، فليس من الجائز أن نسقطها من
كتاب يدور فيه الكلام على جحا وما ينسب اليه من النوادر
والحماقات ، ومعظم نوادر جحا من قبيل هذه النوادر
الساذجة فى تأليفها وموضع الحكمة فيها ، ولعلها ثلاثة
ارباع المجموعة التى بلغت قرابة ستمائة ، وعتها الطبعة
التركية كلها الا القليل الذى تنائر من صدر الاسلام الى
ايام الدولة العباسية بين كتب الادب والفكاهة ، وفيها من
الاسلوب الادبى والذوق الفنى ما ليس فى معظم النوادر
الشائعة ، فان هذه النوادر الشائعة اقرب الى النفاية التى
تتناقلها العجائز لتسلية الاطفال ومن هم فى مثل مداركهم
من السذج والجهلاء ، وموضعها بين المحفوظات الشفوية
التي يسميها الغربيون بالفولكلور اوقع من موضعها بين
كتب الادب والفكاهة الفنية

محسا في الأدب

جحاً في الادب ، او على الاصح النوادر الجحوية في الادب لان هذه النوادر على انواعها موزعة بين زمرة من الحمقى والمحمقين بدأت الكتابة عنهم من القرن الاول للهجرة واشتهر منهم في الادب العربي رهط يبلغ العشرة ويزيد عليها ، منهم هبثقة الاحمق وباقل العبي وأشعب الطفيلي وبنان الموسوس وابو العبر المتحذلق ومزبد المديني والحموي الشاعر ، وغيرهم من المحتالين بالحماسة او التطفيل او الخلاعة ، وليس فيهم من الخلعة الجحوية الا اتساع كلمة الغفلة للاشتقاق بين غافل ومتغفل ومتغافل ، على بعد ما بين هذه المشتقات من المعاني والالوان

وهؤلاء الذين وردت اخبارهم في كتب الادب ارفع في طبقة « الذوق الفني » من جحاً في جملة نوادره وأخباره . فليس فيهم من يسف بأصاحيكة الى الصبيان أو السذاجة السخيفة كما يلاحظ على الكثير من نوادر جحاً التي وصلت إلينا مضافاً إليها نوادر المجموعة التركية ، وهي محيطة بما وضعه الترك وما وضعه غيرهم من عامة الشعوب الشرقية الإسلامية ، وبعضه مما وضعه غير المسلمين من جيران الترك العثمانيين - كالارمن - ونسبوه الى جحاهم المسمى عندهم باسم « أرتين »

وعلة هذه النقاوة فيما أثبتته المؤلفون المتأدبون أنهم اسقطوا البارد الفث من النوادر ، ولم يثبتوا الا ما فيه معنى وله طعم في مذاق الاديب والفنان ، فلا تجد - مثلاً - في

تلك النوادر ماتحسبه من تأليف الصبيان أو أشباه الصبيان من السذج والجهلاء ، ومافيه دليل على الغفلة أو التغافل فهو دليل عليهما بحق في عرف الذكى اللبيب ، وليس مما يكثر فيه الخلط ليحسب من الغفلة أو التغافل في عرف الصغار والاعرار

ولو كانت كل النوادر الجحوية من قبيل نوادر المزبد أو الحموى لكانت طرازا من هذا الفن لايعدله طراز في لغة من اللغات ، ولكانت بابا من أبواب الدراسات الصادقة للفكاهة الفنية والعوارض النفسية التى يعتمد عليها من يجد في البحث عن شواهد التحليل

فمن كلام الحمدونى حين لاموه على التحامق : « ان حماقة تعولنى خير من عقل أعوله »

ومن أضحيك المزبد ، أنه هم بتطبيق امراته فذكرته طول الصحبة ، فقال لها : « والله مالك ذنب غيرها »

ومن أضحيكه أنه سمع عن صيام يوم بمثابة صوم سنة ، فصامه الى الظهر وأفطر ، وقال : « حسبى من اثواب ستة أشهر ، نحسب منها شهر رمضان »

ولو اجتمعت ستمائة نادرة من هذا الطراز لكانت كما اسلفنا ذخيرة لاتعد لها ذخيرة في آداب العالم ، ولكنها لاتجتمع بطبيعتها ولا مناص من اختلاطها بالسخف والهراء كلما تناقلها العديد الاكبر من عامة الرواة ، وأضافوا اليها ما يخرعون به باجتهادهم على حسب مداركهم ، أو ما يستدركون به القوات والنسيان

والكتب التى جمعت هذه النوادر المنتقاة تعد من أمهات كتب الادب الى ايام الدولة العباسية ، ثم يعرض لها الاسفاف والابتذال فيما بعد ذلك من جراء الشيوع والذيعوع أو من

جاء الهزال والاضمحلال في دور المهانة والجمود
وأشهر هذه الكتب نثر الدرر للأبي والاغاني لأبي الفرج
الاصفهاني والمحاضرات لأبي القاسم الراغب الاصفهاني ،
والبيان والتبيين للجاحظ ، وعيون الاخبار لابن قتيبة وأخبار
الحمقى والمغفلين لابن الجوزي والعقد الفريد لابن عبد ربه
وفوات أوفيات لابن شاعر وذيل زهر الآداب للحصري
والمستطرف للإبشيهي وثمرات الأوراق لابن حجة الحموي ،
وحلبة الكميت للنواجي . ثم يلي هذه الطبقة كتاب الفاشوش
في حكم قره قوش لابن مماتي وكتاب مضحك العبوس لابن
سودون المجنون ، ويستطرد الاسفاف بعد ذلك الى القرن
الرابع عشر للهجرة وفيه ظهرت مجاميع النوادر المنسوبة
الى جحا منقولة عن اخلاط اللسان في كل أمة تناقلت هذا
الاسم بين الامم الشرقية

الادب الجحوى بعد النهضة الشرقية

وقد ازدهر الادب الجحوى بعد النهضة الشرقية الحديثة ،
فظهرت المؤلفات عنه على مناهج شتى ، يقتبس بعضها من
نواذره للأغراض التعليمية ، ويستخدم بعضها هذه
« الشخصية » لأغراض النقد الاجتماعى على طريقة جحا
في التحامق والحكمة التى تجرى على أسنة المجانين ،
ويعنى بعضها بالاحصاء التاريخى والاستقصاء فى تدوين
الروايات والاسانيد ، ويرجع هذا الازدهار فى الادب
الجحوى بعد عصر النهضة الحديثة الى العناية بأحياء الآثار
السلفية كما يرجع الى شيوع النقد الاجتماعى بأسلوب الجد
والفكاهة

ولقد نهت النهضة الشرقية أناسا من الاجانب المقيمين

في الشرق - كما نبهت الشرقيين - الى استكشاف طبائعه
وملامحه والوان شعوره وتفكيره ، فكان من هذه الالوان
البادية هذا اللون من الفكاهة الشعبية التي تدور حول
« شخصية جحا » الساذجة ونوادره التي يتداولها الشعب
للسخر منها أو للسخر بها ، وقام اثنان بترجمة نوادر جحا
الى الفرنسية باسم « كتاب جحا الساذج » هما البرت عداه
والبرت جوسيبوفيشي Albert Ades and A. Josipovici
الذي كان من موظفي القصر الملكي وممن حضروا بعض
الدروس الاسلامية في الازهر الشريف ، وكان مولده
بالقسطنطينية سنة ١٨٩٢ فكانت له معرفة بالتركية والعربية
واطلاع على نوادر جحا في مصادرها المختلفة ، وأما صاحبه
البرت عداه فقد ولد بالقاهرة - سنة ١٨٩٣ - وتعلم في
مدارسها وحضر بعض الدراسات الازهرية ، وامكنه أن يفهم
النوادر في لهجتها الشعبية أو لهجتها العربية الشبيهة
بالشعبية

وقدم الكتاب المترجم الى قراء الفرنسية الاستاذ اوكتاف
ميربو Mirbeau بكلمة موجزة كتبها في أثناء الحرب العالمية
(٢٥ أكتوبر سنة ١٩١٦) وقال فيها ان المؤلفين لا يشرحان
شيئا لان الحياة لا تشرح نفسها وما كان « جحا » الا فلذة
من الحياة الشرقية تعيش ولا تحتاج حيث تعيش الى
تفسير ، لان النوادر لا تبحث لنا عن غير المؤلف أو عن
الخوارق والغرائب وانما تعطينا مألوفات الحياة الدارجة
بغير بحث ولا انتقاء ، واذا بدا فيها اثر من الغرابة فانما
ترجع هذه الغرابة الى اختلاف الجيل مع تشابه الشخصيات
وتكرار أمثالها في كل جيل

وماكاد هذا الكتاب يظهر بالفرنسية حتى ترجم الى

اللغات الاوربية واقبل عليه المثقفون لانه معرفة يستزيدونها
كما اقبل عليه عامة القراء لانه يروقههم بفكاهته ووقائع
الحياة المثلة فيه ، ومن هذه التراجم ترجمة بالانجليزية
ظهرت باسم جحا الاحمق Goha the fool أو جحا الفر
« البسيط »

وآخر ماظهر من اكتب الاوربية عن جحا كتاب مغامرات
بخارى الذى ألفه الكاتب الروسى ليونيد سولفييف Leonid
Soloviev (سنة ١٩٣٨) وترجمه الى الانجليزية تاتيانا
شيبونينا Shebunina فى هذه السنة ، واتخذ المؤلف من
شخصية جحا فى هذا الكتاب داعية جوالا يضطرب فى البلاد
الاسيوية هربا من ظلم الحكام وكراهة للمقام ، ويمضى هنا
وهناك ليشهر بالنظم الحكومية التى ترهق الناس بالضرائب
وتلتمس لها اسبابا من الهباء لاتعفى منها المقيم ولا المرحل
بين الارض والسماء ، ومثال هذه المعاذير التى تنتحل
لتحصيل الضرائب أن المكاسين استوقفوا جحا على باب
مدينة ليسدد الضرائب عمن ينوى أن يزورهم فيها ، فلما
قال للمكاسين انه لايقصدهم للزيارة بل للعمل والتجارة
طالبوه بأضريبة ضعفين : احدهما للعمل المربح والاخرى
للزيارة « الضمنية » . . . لان من يتجر مع قوم يزورهم
بغير مرأى

ونخال ان القراء الغربيين اقبلوا على نواذر جحا لانها
وافقت عندهم نماذج من الشخصيات المضحكة يألفونها
ويتناقلون حكاياتها الصحيحة او الموضوعية ، وربما كانت
نواذر جحا نفسه قد تسربت الى الغرب بالتنقل والرواية
الشفوية والاطلاع على الكتب العربية فى أصولها أو ترجمتها ،
ولا يبعد أن يكون كثير من هذه النواذر قد أنتقل من المغرب

الى أبناء جزيرة مالطة الذين يتحدثون في لغتهم الممتزجة بالعربية عن شخصية كشخصية جحا تسمى عندهم جهان ، وهو تصنيف يسير كتصنيف كثير من الاسماء العربية التي يتسمى بها أبناء تلك الجزيرة . أما اسم « جوكا » المشهور باللغة الإيطالية فلا نخاله من قبيل هذا التصنيف كما خطر لبعضهم ، لأن مادة « جوكا » بمعنى المزاح والضحك شائعة في اللغات الغربية اللاتينية والسكسونية ، ومنها كلمة « الجوكندا » لصورة مونا ليزا الخالدة بمعنى « المبتسمة » من عمل ليوناردو دافنشي الفنان الكبير

وقد اشرنا فيما تقدم الى شخصيات في الغرب تشبه شخصية « جحا » في جانب الحكمة تارة وفي جانب الحماسة تارة أخرى ، ولا ننسى في هذه العجالة أبقي هذه الشخصيات لأنها باقية الى يومنا هذا عنوانا لصحيفة سسيارة باسم ال « البنش » Punch المختزل من اسم Punchinello من بقايا التمثيل الصامت في العصور الوسطى أو « القره قوز » المعروف عندنا بصندوق الدمى واللاعيب

والتناقض كثير في رد هذه الكلمة الى أصلها القديم ، فمن الشائع في الاسانيد الشعبية الإيطالية ان الاسم مصحف من اسم مهرج سخيف يسمى بتشيو دانيلو Puccio d'Aniello كان معروفا في القرون الوسطى ثم اتخذوا اسمه علما على صناعة التهريج

ولاسند لهذه الرواية غير الاشاعة والمشابهة في اللفظ مع الاختزال والتصنيف ، والارجح ان الاسم مصحف من اسم بنشيسوس بيلات Pontius Pilate أو بيلاطس الذي حدثت في عهد ولايته محاكمة السيد المسيح . فقد كانت هذه « الشخصية » محور السخرية والاهانة في المسرحية

الدينية اتى كانت تمثل محاكمة السيد المسيح وتعرض
أعداءه في صورة رمزية يقابلها النظارة بالتهكم والاستهزاء .
وقد يكون وصف القره قوز بالسواد كما يسمى باللغة
التركية منظورا فيه الى هذه المسرحية « السوداء » أو
مأخوذا من الستار الاسود الذى يحجب الدمى واللاعيب ،
وهكذا تنتقل الشخصيات والمناظر بين الشعوب ثم تنزل
في كل أمة بخصائصها بعد نسيان وسائل الانتقال

وأيا كان مصدر هذا « البنش » فهو باق الى اليوم يصفى
الناس الى فكاهاته متفرعة متجددة ، متطورة ، كما نقول
بمصطلحات زماننا وقلما يعنيه ان يتبعوها الى جذرها
القديم

ومن أطوار الشعوب فى تناقل الفنون أو الموضوعات الفنية
أن نهضة الشرق نبهت الاوربيين الى تراث الشرقين القديم
وأن عناية الاوربيين نبهت اليه أناسا من الشرقين الذين
يكتبون باللغات الاوربية ، فوضع الاستاذ عسكر نحاس
باللغة الفرنسية كتابا سماه « تأملات ابن جحا » يحكى فيه
الابن أباه بالحكمة المازحة والدعابة الحكيمة ، ومن أمثاله
قوله عن المرأة « انها خلقت فى ارجل الانانية لتحقيق
مطالبها » وان « امرأة واحدة تبحث عن سيد ، ولكن امرأتين
معا تبحثان عن فريسة » وان « الرجل الشرير فى عين المرأة
الخائنة هو السمكة التى ترفض الطعم » و « ان المرأة
تعذب رجلها عقابا له على أنها شئ لاغنى عنه لديه »

وسينشأ لجحا بعد ابنه هذا حفدة وأبناء حفدة ،
ولانظنهم جميعا قالوا - بعد - كلمتهم الاخيرة باللغة العربية ،
أو التركية ، أو بسائر اللغات ، فانهم خالدون بخلود النفس
البشرية بين كل قبيل

خلاصة تاريخية

والخلاصة من الناحية التاريخية - وهي أقل النواحي
ثبوتا وأهمية في هذا البحث - أننا نستطيع ان نتقبل
أبا الفصن جحا كما ذكره الميداني في أمثاله كأنه شخصية
تاريخية لاغرابة في وجودها ولا داعية للشك في امكان وقوع
النوادر المنسوبة اليها ، فان الذين يشبهون أبا الفصن هذا
في غفلته وسهواته يوجدون في كل بيئة ، وفي كل زمن ، وأن
تنوعت المناسبات والاحوال التي تكشف للناس عما طبعوا
عليه من الغفلة

ويلحق بأبي الفصن اناس على شاكلته لم يشتهروا مثل
اشتهاره ولم يسمع بهم الامراء والولاة كما سمعوا باسمه
وخبره ، فيطلق الناس عليهم اسم جحا نيزا او تشبيها او
تغليبا او تفيها بالحكاية النادرة التي تدل على علم بأخبار
السلف اذا رويت عن مشهور متقدم ولا تدل على شيء من
ذلك اذا رويت عن سكان البلد في ساعتهم الحاضرة ، ويعمل
الوضع و « القفش » عملهما اثناء ذلك فيجتمع من النوادر
الجحوية ماتصح نسبته الى شخصية قديمة او حديثة
وما لا تصح نسبته الى أحد غير وضاعه ومخترعيه من الرواة
والملفقين

ونحن في عصرنا هذا قد شهدنا نشأة أمثال هذه الشهرة
الصحيحة والمخترعة وشهدنا تطورها من مبدأها الى مصيرها
بعد عشرين أو ثلاثين سنة ، وكان « الفضل » في ذلك

للصحافة الاسبوعية المضحكة التى كانت تقوم فى أوائل القرن العشرين على « القفش » والملحة المخترعة ، ويعلم الكتاب والقراء والمستمعون أنها تلفيق يعتمد على أصل ضعيف ، وأنها براعة فى صناعة « القفش » يتنافس فيها أولئك الصحفيون ، وهم ولا ريب خلفاء الندماء الذين كانوا يتوون هذه الصناعة فى صدر الدولة الاسلامية وما يليه من العصور قبل نشأة الصحافة

وأينا الاديب « ابراهيم الدباغ » يأكل فى مأدبة فلم نلاحظ عليه شيئاً من النهم الذى اشتهر به بين المتندرين ، وسألنا صاحباً له فقال انها أكلة واحدة أو أكلات قليلة بعد جوع أكسبته هذه الشهرة الباطلة ، وأنت تعلم أنه كثير السخرية والاستهزاء بالادعياء من محترفى الادب والصحافة الذين يتزاحمون على مجالس الاغنياء ، فانتهزوا « فرصة » هذا انهم الموقوت للقصاص والوقية وملأوا الصحف الاسبوعية « بالقفشات الدباغية » حتى أصبح « الدبغ » كلمة فى اللغة الدارجة تطلق على النهم ، وقد ظلت هذه الكلمة تحمل معناها المستعار الى يومنا هذا ، وأصبحنا نسمع من يقول عن أحد من الناس أنه « دباغ » وهو لا يعرف أصلاً لهذه التسمية

وقد حكينا ماراينا من الشيخ الدباغ وما سمعناه من صديقه اصحاب احدى الصحف الاسبوعية التى أولعت « بالقفش » له والتلفيق عليه . فقال : « لاتنخدع به فتدعوه الى طعام ، فانما يكف الرجل يده عن الاكل وهو مشتاق اليه ليدحض كلامنا عنه ويفرر بالحاضرين فيقعون فى الشرك ، ويندمون حيث لاينفع الندم »

فلم ندر - ونحن معاصرون لصاحب الشهرة ومن شهروه
بها - أى القوانين نصدق وأى القفشات يعتمد على الواقع
وأىها يستمد من الفكاهة والخيال

واشتهر رجل آخر فى تلك الآونة بالمبالغة فى الادعاء - أى
بالفشر كما يقولون فى اللهجة البلدية - وكان حقا يدعى
ويبالغ فى دعواه ، وكان ظريفا يحسن التخلص من المأزق اذا
امتحن بمن يتعقبه بالنقد والسخرية ، وكان الى هذا وذاك
على يسار يطمع فيه طلاب الاشتراكات لمصحف الاسبوعية
فى ذلك الحين ، فامتلات هذه الصحف بدعاويه وبالدعاوى
المقيسة عليها مع التوسع والاغراب ، وأصبح اسمه كذلك
علما على « الفشر » يكاد يلغى هذه الكلمة لولا انها متأصلة
فى الاقوال والاقاويل

فلا غرابة فى نشأة النوادر الجحوية سواء صحت نسبتهما
أو لم يصح منها الا القليل

وكل ماجاء فى الكتب العربية من هذه « الجحويات » فلا
غرابة فى نشأته ، ولا غرابة فيه من كل وجه الا فى التناقض
بين الغفلة والتغافل فى أخبار الرجل الواحد ، ولا سيما
الأخبار التى تتحقق صفات صاحبها ويثبت أنه من المجانين
المسلوبين الذين لا يحسنون تدبير « التغافل » ولا تجىء منهم
الحكمة الا فلتة غير مقصودة فى القليل من الاحايين

الخوجة نصر الدين التركى

اما جحا التركى المسمى بالخوجة نصر الدين فالمنسوب
اليه يملأ مئات الصفحات ، وبين ايدينا كتاب بالتركية مطبوع
فى الاستانة بالحرف الدقيق (سنة ١٣٢٨ هجرية) يقع

في مائتي صفحة وخمس وخمسين ولا يستوعب كل مانسب
الى جحا أو الى الخوجة نصر الدين من نوادر الحكمة أو
نوادير الغفلة والبلاهة

والامر الذي لاشك فيه أن كثيرا من هذه النوادر وضعت
بأثركية ولم تنقل عن العربية ، وانها ترجع الى شخص عاش
في بلاد الترك ولم تكن نشأته على الاقل في بلاد أخرى
ويدعونا الى الجزم بذلك أن النوادر تشتمل على جناس
يوجد في الالفاظ التركية ولا يوجد في الفاظ لغة أخرى ،
كالجناس بين جل وكل في نادرة المسامير والخطوط مع
لفظ الكاف كما تلفظ 'اجيم في بعض الكلمات ، والجناس بين
جمع أيوب وكلمة « ايب » بمعنى حبل في نادرة يحذر فيها
الخوجة نصر الدين أبناء بلده من الافراط في تسمية أبنائهم
باسم أيوب ، أو كالجناس في الاصطلاح على تسمية المطر
بالرحمة وقولهم عن نزول المطر أنه رحمة نزلت « رحمة
انيور » من عند الله

ويدعونا الى الجزم بتأليف الترك لكثير من هذه النوادر
أنها تذكر المدن والاقايم في آسيا الصغرى وما جاورها
بخصائصها المشهورة الى هذه الايام

ويرجح لدينا أن نصر الدين شخصية تركية غير منقولة
عن الامم الاخرى انه نشأ في آسيا الصغرى حيث تنتشر
جماعات الدراويش الدينيين من قبل الاسلام ، وحيث يعهد
في آحاد من هؤلاء الدراويش أن يخلطوا خلط المجاذيب
ويفتوا فتوى العلماء والفقهاء ، وأن يلوذوا بمظاهر التخليط
أحيانا بغية السلامة من بطش الحكام المغيرين على البلاد ،
وقد يلوذ بهم عامة الناس إيمانا بكراماتهم وشفاعاتهم 'يدفعوا.

عنهم مظالم الطفافة ، فيحتالون على استرضاء الظالم بالفكاهة أو بالوعظ المقبول أو بالتخليط الذى ينالون به ماطلبوه من الحاكم اذا أضحكوه واستطاعوا فى وقت واحد أن يلمسوا فى نفسه موطن التقوى والخوف من الله وموطن الرضى والسرور

والخوجة نصر الدين مشهور بكراماته وكرامات ضريحه فى مقبره « آق شهر » بعد وفاته بزمان طويل ، يذكر الناس أضاحيكه فيضحكون منها ولكنهم يحيلونها الى حالات أهل الجذب بين عالم الاسرار وعالم العيان ، أو يحيلونها الى حب التقية والاحتيال على الموعظة الحسنة بالاسلوب الذى يؤدى الى مرماه ويعفيه من عقابه

والشك الاكبر انما يعرض لهذه السيرة من أطباق النوادر الكثيرة فيها على اجتماع الخوجة نصر الدين بتمورلنك اثناء غزوته لبلاد الروم ، والمشهور أن الخوجة نصر الدين توفى سنة ٦٧٣ أو سنة ٦٨٣ هجرية ، فهو قد توفى قبل مولد تيمورلنك بأكثر من نصف قرن ، ولا يعقل أنه رآه وحضر مجالسه الا اذا كانت وفاته حوالى سنة (١٤٠٥ م) التى توفى فيها تيمور

ولا يسهل التوفيق بين هذه الروايات الا على فرض من فرضين : أحدهما خطأ المتأخرين فى تعيين السنة التى توفى فيها الخوجة نصر الدين ، والثانى أن تيمورلنك لقي شيخا آخر على شاكلة الخوجة نصر الدين فتداخلت الروايات وعلقت البقية الباقية منها بالاسم المشهور

وايا كان صواب النسبة فى بعض النوادر التى تحتل الخلاف فهناك جملة من النوادر لا اختلاف فى وضعها بعد

عصر تيمور وبعد العصر المفروض للخوذة نصر الدين ، وهى
النوادر التى وردت فيها الاشارة الى المخترعات الحديثة
كالبندقية وساعة الجيب ، او كالنوادر التى تكذبها وقائع
التاريخ العثمانى وتاريخ آسيا الصغرى على الخصوص



ومن الواجب أن نسلم - بداءة - بوضع العدد الاكبر من
النوادر التركية أو نقلها من رواة الامم الاخرى ، لان حصولها
كلها من رجل واحد أمر لا يسيغه العقل ولا يروى له نظير
فى السوابق التاريخية ، فلو أن هذا الرجل عاش ليخلق
تلك النوادر وعاش الناس معه ليسجلوها لما اجتمع من
أصاحبه تلك المئات التى تملأ المجلدات ، ولا استطاع أن
يأتى بما فيها من النقائض العقلية والخلقية ، فضلا عن
نقائض الجغرافية والتاريخ

فوضع العدد الاكبر من النوادر أمر مفروغ منه لا يجوز أن
يحتج به المحتج على بطلانها واختلاقها من أصولها ، ولعل
هذه النوادر الموضوعة أصح فى الدلالة على أزمنتها وبيئاتها
من وقائع السجلات والارقام

قيل ان بين الجليل الرهيب والمضحك المغرب قيد شعرة أو
لمحة عين . ولا شك فى هذه الحقيقة من الوجهة النفسية
كما تقدم ، لان الهول يتحول فجأة الى الضحك بطارىء من
طوارئ التغير والتبديل التى تتعاقب فى أيام النصر
والهزيمة والقيام والسقوط بين الجبابرة وأصحاب
الدول

ولا شك فى هذه الحقيقة - أيضا - من الوجهة التاريخية

إذا رجعنا الى عصر تيمورلنك واشباهه في تواريخ المشرق
والمغرب ، فليس أحفل بالاضاحيك من عصور القلب
وعصور الشدائد والاهوال

وظاهرة أخرى من الظواهر الناطقة في النوادر الموضوعه
تنبئنا عن زمانها الذي فشت فيه وشاع اختراعها بين جميع
الطبقات

فمنذ القرن السادس للهجرة (والثاني عشر للميلاد)
هبطت المعرفة من ذروة الكرامة واصبح اعارف الاريب من
يحتال على رزقه بالمجون والمنادمة والتحامق والتشبهه
بالجهلاء واصحاب الجدود من ضعاف العقول ، وشاع القول
« بحرفة الادب » مغنية عن القول ببؤس العالم الاديب
في أوائل هذا العهد ظهرت مقامات الحريري التي يجمع
بطلها بين البؤس والبلاغة والبراعة في الحيلة ، وفيه تواتر
النظم في شكوى الزمان مقرونة بشكوى الادب والعجب من
قسمة الارزاق ، وهذه هي الناحية الادبية من تلك الشكايات
وتلك الحيل « الانشائية » أو الفنية ، واما الناحية الاجتماعية
العامة فأيتها هذه النوادر التي تعد بالمئات ولا تظهر فيها
براعة اللبيب الاريب الا في الاحتيال على أكلة أو في الاحتيال
على دفع المحتالين الطامعين في قوته الهزيل

وبين قصص جحا قصة عن تقسيم الارزاق يسأل فيها
جحا من نديبه للقسمة هل يريدون قسمة الله أو قسمة
العبيد . فلما حكموه في توزيع الحظوظ بينهم على قسمة
الله أعطى هذا مالم يعط ذاك وفاوت بينهم اكبر المفاوطة في
الاقسام ، وما كانت هذه النوادر لتشيع بين العامة من رواة
« الجحويات » لو لم تكن لها مصادرها المتواترة من بعيد

على ان النوادر « الطعامية » تنم على وجه خاص عن
سداجة في الحيلة ترجع نسبتها الى طوائف المحرومين من
الجهلاء الذين يتأسون بذوى المعرفة والتقى ولا تسعفهم
القدرة على الاختراع ، فغاية جهدهم هذا الذى ابتدعوه
وأحبوا تعظيمه وتحقيق الاسوة فيه بنسبته الى العارفين ،
وجاءت هذه النوادر الطعامية مجاوبة للمقامات الانشائية
وللقصائد المنظومة فى شكوى الزمان والعجب من قسمة
الارزاق ، ولم يعرف هذا كله فى عصر من عصور الشرق
كما عرف بعد القرن السادس للهجرة ، وبعد ادبار الدولة
العباسية ، واجتياح تيمورلنك للعالم الشرقى من تخوم
الصين الى شواطئ بلاد الروم

ونودع الآن جحا والجحويات ونحن نحمد للضاحك
المضحك ، أنه أعار اسمه عامدا وغير عامد لباب من الدراسة
النفسانية والاجتماعية لم يكن ميسورا لنا بغيره ، ولن
يبخسه شيئا من الحمد ان يكون على وفاق مع التاريخ أو
على افتراق من كل تاريخ

فهرس

صفحة

الكلمة والضحكة	١
لماذا نضحك ؟	٣٣
ثلاثة آراء فى الضحك	٢٩
الضحك فى الكتب الدينية	٩٣
الانسانية والفكاهة	١٠٥
جحا .. ونوادره	١٣١
٦٠ نادرة	١٤٣
موازن غير محكمة	١٧١
جحا فى الأدب	١٧٧
خلاصة تاريخية	١٨٥



: شركة فرج
الرئيسي بط
بيكو في بير
الأعداد تر
تتولى تس

العراق : السيد محمود حلمي - صاحب المكتبة
العصرية - ببغداد

اللاذقية : السيد نخلة سيكاف

مكة المكرمة : السيد هاشم بن علي نحاس - ص.ب ٩٧

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد - مكتبة المؤيد -
البحرين

ساحل الذهب : The Queensway Stores, P.O. Box 400.
Accra, Gold Coast, B.W.A.

نيجيريا : Mr. M.S. Mansour, 110, Victoria Street,
P.O. Box 652, Lagos, Nigeria, W.C.A.

انجلترا : مكتب توزيع المطبوعات العربية

Arabic Publications Distribution Bureau
Bishopsthorpe Road, Sydenham,
London S.E. 26, England.

فرنسا : Etablissements Helbaoui,
29, Rue Saint-Augustin,
PARIS-2°, FRANCE.

البرازيل : Dr. Michel H. Thomé,
Rua Do Colegio N° 3,
3° Andar - Sala 9
SAO PAULO - BRASIL.

هذا الكتاب

ليس أشوق للقارىء فى موسم الراحة وفصل
الحر الشديد من أن يقضى وقته فى قراءة هذا
الكتاب المفيد الممتع الذى يتناول الضحك وزعيم
الضاحكين المضحكين جحا ١٠٠ !

ونقول المفيد الممتع ، لان هذا الكتاب ليس
للمتعة فقط ، بل هو مجموعة من الثقافة والفكاهة
والادب والفلسفة والتاريخ

فقد قدم المؤلف الكبير لهذا الكتاب بفصول
عن الكلمة والضحك ، وعن أسباب الضحك ولماذا
نضحك ، وعن الانسانية والضحك ، وعن الضحك
فى الكتب الدينية . ثم تناول جحا كشخصية
ضاحكة عالمية ، وروى طائفة من نوادره الطريفة ،
واستخلص منها عبرة الضحك ومآتاه . كما تحدث

عن آراء فلاسفة الضحك ، فهو ينقلك من العلم
الى الادب الى الفكاهة الى الفلسفة ثم الى
المرحة - حياة جحا التى أصبحت عنواناً
فأنت تقرأ بين رياضتك النفسية
الذهنية فى هذا الكتاب أجمل ماتحت
ثقافة عن الضحك وزعيم الضاحكين
الذى أبى إلا أن يعيش خالداً بين
الميل الى الضحك والفكاهة فى نفوس

Bibliotheca Alexandrina



0399735

